A B D U L L R A H M A N   M O K B E L

عبدُ الرحمَن مُقبل

من
المؤمنين
رجال

B E L I E V E R S   M E N   O F   P O W E R F U L   F A I T H

عصيرُ الكُتبْ

من المؤمنين رجال

عصير الكتب
للنشر و التوزيع

عصير الكتب
للنشر و التوزيع

إدارة التوزيع
00201150636428

لمراسلة الدار:
email:P.bookjuice@yahoo.com
Web-site: www.aseeralkotb.com

الطبعة الأولى: أبريل 2021م
رقم الإيداع: 2021/3042م
الترقيم الدولي: 978-977-992-149-5

المؤلف: عبد الرحمن مقبل
تدقيق لغوي: نهال جمال
تنسيق داخلي: معتز حسنين علي

الآراء الواردة في هذا الكتاب تُعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تُعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة © لدار «عصير الكتب» للنشر والتوزيع
يحظر طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية
أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي من الناشر فقط.

A B D U L L R A H M A N   M O K B E L

عبدُ الرحمَن مُقبل

من المؤمنين رجال

عصير الكتب

للنشر و التوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

عميرُ بن وهب الجُمَحي

شيطان الجاهلية

«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ: لَخِنْزِيرٌ كَانَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ عُمَيْرٍ حِينَ طَلَعَ،
وَلَهُوَ الْيَوْمَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ بَعْضِ بَنِيَّ».

عمر بن الخطاب

كانَ الأمرُ مهيبًا وعظيمًا، لأنَّ جيشًا من مكة قوامه 1000 رجلٍ بخيلهم وعتادهم يقفون أمام 313 رجلًا من المسلمين، الجيشانِ كلاهما يتطلع لانتهاء الواقعة بما يسرُّهم، وكانت الأخبار تتوارد من الأعينِ بين الجيشين عن التجهيزات الحربية والمعنوية، لكنَّ رجلًا واحدًا من المشركين، كانت له نظرةٌ مختلفةٌ عن البقية، تسلَّلَ خفيةً حتى وصل إلى مكانٍ يُشرفُ على جيش المسلمين، وأخذ يجسُّهم بنظره، ويجولُ في أرجاء الجيش بفكره، يتفرَّسُ في وجه عمر، ويراقب موضع النبيِّ

- - ويرى في وجوه المسلمين إصرارًا يدكُّ الجبال.

عاد عميرُ بن وهب، أو شيطان قريش -كما كانوا يُلقِّبونه- إلى قومه، فسألوه عن أحوال عدوِّهم، فقال: إنهم ثلاثمائة رجل، يزيدون قليلًا أو ينقصون.

فسألوه: هل وراءهم مددٌ أو وكمين؟

فقال عمير: لم أجد وراءهم شيئًا، ولكن يا معشر قريش، رأيتُ المطايا تحمل الموتَ الناقع، قومٌ ليسَ معَهُم مَنَعةٌ ولا ملجـأ إلا سيوفَهم، والله ما أرى أنْ يُقتَلَ رجـلٌ منهم حتى يَقتُلَ رجلًا منكم، فإذا أصابوا منكم مثلَ عددهم، فما خير العيش بعد ذلك؟ فانظروا رأيكم!

أُسقِطَ في يدِ قريش لما سمعوا كلمات عمير، وساورتهم أنفسهم بالعودةِ إلى مكة دون قتال، فالفقدُ قد لاحَ في الأفقِ كسحابٍ لا تُخطئه العين، فتصدَّى أبو جهلٍ لهذا الأمر، وأجَّج النار في قلوبِ أصحابه وأوغرَهم على محمد - - وأتباعه.

انجلَت الحرب، وكان أبو جهلٍ أول قتلاها، وليس آخرهم، وامتلأت بيوتُ مكة بالنعي والرثاء والحقد، امتلأت بأمٍّ ثكلى، أو امرأةٍ ترمَّلَت، أو أبٍ مبتور وأخٍ فقيد.

وكانت المدينة عامرة بالفرحِ والسعادة، فقد حقَّقَ المسلمونَ نصرَهم الأول، وأسروا من قريش عددًا ليس بقليلٍ من سادةِ قريش وعبيدها.

عادَ عُميرُ بن وهب إلى مكة، تاركًا فلذة كبده أسيرًا في يد المسلمين، والوساوسُ تملأُ رأسه خوفًا من أن يقتل المسلمونَ ابنه نكايةً به، أو أن يعذبوه جزاءً بما كانَ يفعلُ من الأذى بحق رسول الله - - وأصحابه.

وفي صباحٍ لا ينساه عُمير، اتجه للطوافِ بالكعبة والتبرُّكِ بأصنامها، فوجدَ صفوان بن أمية جالسًا إلى الحِجْر، والهمُّ واضحٌ على وجهه، فبادرَه عميرٌ بالتحية: «عِم صباحًا يا سيِّدَ قريش».

فقال صفوان: «عِم صباحًا يا أبا وهب، اجلس نتحدث ساعة، فإنَّما يُقطَعُ الوقتُ بالحديث».

جلس عميرٌ إلى جانب صفوان، وأخذا يتجاذبان الحديثَ حتى أفضى بهما إلى بدرٍ وما حدثَ فيها، وتذاكرا مصابهما العظيم، تارةً يذكرونَ من ماتَ وتارةً يعدِّدونَ الأسرى في يد محمدٍ - -وأصحابه، تارةً يتفجَّعانِ على قتلاهم من عظماء قريش، وتارةً يتوجَّعان على أسراهم.

ثمَّ تنهد صفوان، وقال: ليسَ في العيش خيرٌ بعدَهم والله.

فقال عمير: صدقتَ والله.

صمتَ عميرٌ برهةً ثمَّ قال: وربُّ الكعبةِ لولا ديون عليَّ ليسَ عندي ما أقضيها به، وعيالٌ أخشى عليهم الضياع من بعدي، لمضيتُ إلى محمدٍ وقتلته، وحسمتُ أمره، وكففتُ شرَّه!

ثمَّ أكملَ كلامهُ بصوتٍ خافتٍ وقال: وإنَّ في وجود ابني وهب لديهم، ما يجعل ذهابي إلى يثرب أمرًا لا يثير الشبهات!

تهلَّلَ وجه صفوان لكلام عمير، واغتنمَ الفرصةَ ولم يُرِد أن يفوِّتها، فالتفتَ إلى عمير وقال له: «يا عمير، اجعل دينَك كلَّهُ عليَّ، فأنا أقضيهِ عنك مهما بلغ، وأما عيالك، فسأضمُّهم إلى عيالي ما امتدَّت بي وبهم الحياة، وإنَّ في مالي من الكثرة ما يسَعهُم جميعًا ويكفل لهم رغدَ العيش ورخاءه».

فقال عمير: «إذن، اكتُم حديثنا هذا يا صفوان، ولا تُطلع عليهِ أحدًا».

قال صفوان: «لكَ ذلك يا عمير».

نهضَ عميرٌ والحقدُ ملءَ القلب، يدفعه شيطانُ الكُره إلى جهنَّم الأفكار التي سيقتلُ بها نبيَّ الله - -، فأخذ سيفه وشحذه، ثمَّ نقعه بالسمِّ حتى امتلأ، وامتطى راحلته وتوجَّه صوبَ المدينةِ والشر يدورُ في خلده.

وصلَ عميرٌ وجهته، ومضى إلى مسجد رسول الله - -، فأناخَ راحلته وربطَ عقالها، ثمَّ مضى إلى المسجدِ متقلِّدًا سيفه، وبينما عمرُ بن الخطَّابِ في نفر

من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر، ويذكرون ما أكرمهم الله به، إذ نظر عمر فرأى عميرًا بن وهب متوشحًا سيفه، فقالَ لـمَن معه: «هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب، والله ما جاء إلا لشرٍّ، فهو الذي حرَّش بيننا وحَزَرنا للقوم يوم بدر».

ثم دخل عمر على الرسول - - فقال: يا نبي الله، هذا عدو الله عمير بن وهب قد جاء مُتَوشحًا سيفه.

فقال الرسول - -: أدخِله عليَّ يا عمر.

فأقبل عمر حتى أخذ بحمالة سيفه في عُنُقه، وقال لرجال ممن كانوا معه من الأنصار: ادخلوا على رسول الله - - فاجلسوا عنده، واحذروا عليه من هذا الخبيث، فإنه غير مأمون.

ودخل عمر ومعه عمير بن وهب على النبي - -، وعمر آخذٌ بحمالة سيف عمير في عُنقه حتى لا يستطيع الإفلات، فلما رآه النبيُّ قال: دعه يا عمر، ادْنُ يا عمير.

فدنا عمير وقال: انعموا صباحًا. (وهي تحيتهم في الجاهلية).

فقال له النبي: قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير، بالسلام تحية أهل الجنة.

فقال عمير: أما والله يا محمد إن كُنتُ بها لَحديث عهد.

فقال النبي: فما جاء بك يا عمير؟

قال: جئتُ لهذا الأسير الذي في أيديكم.

قال النبي: فما بال السيف في عُنُقك؟

قال عمير: قبَّحها الله من سيوف، وهل أغنت عنَّا شيئًا؟!

قال الرسول - -: أصدقني يا عمير، ما الذي جئت له؟

قال: ما جئت إلا لذلك.

فقال له النبيُّ: بل قعدتَ أنتَ وصفوان بن أمية في الحِجر، فذكرتُما أصحابَ القَلِيب من قريش، ثم قلتَ: لولا دَيْنٌ عليَّ وعيالٌ عندي لخرجتُ حتى أقتل محمدًا، فتحمَّل لكَ صفوان بدينك وعيالك على أن تقتلني له، والله حائل بينك وبين ذلك.

عندئذ صاح عمير: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك رسول الله، هذا أمرٌ لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله ما أنبأك به إلا الله، فالحمد لله الذي هداني للإسلام».

فقال النبيُّ لأصحابه: فَقِّهوا أخاكم في الدين وأقرِئوه القرآن، وأطلقوا له أسيره.

وفي مكة، ومنذ غادرها عمير بن وهب إلى المدينة، كانَ صفوان ينتظر وهو فرح مختال، وكلما سألهُ قومُه عن سبب فرحه يقول: «أبشروا بوقعةٍ يأتيكم نبؤها بعد أيام تُنسيكم بدرًا».

وكان يخرج كل صباح إلى مشارف مكة يسأل القوافل والركبان: «ألم يحدث بالمدينة أمرٌ؟»، حتى لقيَ مسافرًا أجابه: «بلى، حدثَ أمرٌ عظيم».

فتهلَّلت أساريرُ صفوانَ وعاد يسأل الرجل: «ماذا حدث؟ اقصص عليَّ».

فأجابه الرجل: «لقد أسلَمَ عُمير بن وهب، وهو هناك يتفقه في الدين ويتعلم القرآن».

ودارت الأرض بصفوان وأصبح حُطامًا بهذا النبأ العظيم. وبعد فترة قصيرةٍ من الزمن أقبل عُمير على رسول الله - - ذات يوم وقال: «يا رسول الله، إني كنت جاهدًا على إطفاء نور الله، شديد الأذى لمن كان على دينِهِ عز وجلَّ، وإني لأحبُّ أن تأذن لي فأقدُمَ مكة فأدعوهم إلى الله تعالى وإلى رسوله وإلى الإسلام، لعلَّ الله يهديهم، وإلا آذيتُهم في دينهم كما كنتُ أوذي أصحابكَ في دينهم».

فأذِنَ لهُ النبيُّ - - بذلك.

وبالفعل عادَ عميرٌ -رضي الله عنه- إلى مكة، وكانَ أول من لقيه صفوان بن أمية، وما كاد يراه حتى هَمَّ بمهاجمته، ولكن السيف المتحفِّز في يد عُمير ردَّ صفوانَ إلى صوابه، فاكتفى بأن ألقى على سمع عُمير بعض شتائمه ومضى في سبيله!

دخل عمير مكة مسلمًا في روعة صورة عمر بن الخطاب يوم إسلامه، وهكذا راح يعوِّض ما فاته، فيبشِّر بالإسلام ليلَ نهار، علانيةً وجهرًا، يدعو إلى العدل والإحسان والخير، وفي يمينه سيفه يُرهب به قُطاع السبيل الذين

يصدُّون عن الله ومن آمن به، وفي بِضعةِ أسابيع كان عدد الذين أسلموا على يد عُمير يفوق عددهم كلَّ تقدير، وخرج بهم عمير -رضي الله عنه- إلى المدينة بموكبٍ مُهللٍ مُكبِّر.

وفي يوم الفتح العظيم، لم ينسَ عمير صاحبه وقريبه صفوان، فراح إليه يُناشده الإسلام ويدعوه إليه، بيد أن صفوان شدَّ رحاله صوب جدَّة ليبحر منها إلى اليمن، فذهب عمير إلى الرسول - - وقال له: «يا نبي الله، إنَّ صفوان بن أمية سيِّد قومه، وقد خرج هاربًا منك ليقذف نفسه في البحر، فأمِّـنه صلى الله عليك».

فقال النبيُّ: هو آمن.

فقال عُمير: يا رسول الله، فأعطني آيةً يَعرفُ بها أمانك.

فأعطاه الرسول - - عمامته التي دخل فيها مكة، فخرجَ بها عمير حتى أدرك صفوان فقال: يا صفوان، فِداك أبي وأمي، اللهَ اللهَ في نفسك أن تُهلكها، هذا أمان رسول الله - - قد جئتك به.

فقال له صفوان: وَيْحَك، اغْرُب عني فلا تكلمني.

فقال عُمير: أيْ صفوان فداكَ أبي وأمي، إنَّ رسول الله - - أفضـل الناس، وأبـرُّ الناس، وأحلـمُ الناس، وخيـر الناس، عِزُّه عِزُّك، وشَرَفُه شَرَفُـك.

فتردَّدَ صفوانُ، ثمَّ قال: إنِّـي أخاف على نفسـي.

فقال عُمير: هو أحلمُ من ذاك وأكرم.

رجعَ صفوانُ مع عُمير، حتى وقفَ بينَ يدَيَ رسول الله - -، فقال صفوان للنبي الكريم:

إنَّ هذا يزعُم أنك قـد أمَّـنْتَنـي.

قال الرسـول - -: صدق.

قال صفـوان: فاجعلني فيها بالخيار شهريـن.

فقـال الرسول - -: أنتَ بالخيارِ فيهِ أربعةَ أشهر.

ولمْ يمضِ وقتٌ حتى أسلمَ صفوان، وإسلامه على يدِ عمير بن وهب، رجلٌ كانَ شيطانَ الجاهليةِ سابقًا، وحواريَّ الإسلامِ بقيةَ حياتهِ -رضيَ اللهُ عنه-.

عبد الله بن سلام

رجلٌ من بني إسرائيل

«تموت و أنت مستمسك بالعروة الوثقى»

- محمد -

ابن الحارث، والإمام الحبر، المشهود له بالجنة، أبو الحارث الإسرائيلي، وهو رجل من بني إسرائيل من ولد يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن، حليف الأنصار، من خواص أصحاب النبي - -.

كانَ اسمه: الحصين، فغيره النبي - - إلى عبد الله، وقد شهد فتح بيت المقدس كما ذكرت بعض كتب السير.

قال ابن سعد في كتاب الطبقات: «إنه من نسل يوسف بن يعقوب -عليهما السلام- وهو حليف القواقلة». والقواقلة هم أبناء غُنم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج، وغُنم هذا هو قوقل، وقيل بل إنَّ ثعلبة بن دعد هو قوقل، وسُمي بذلك لأنَّهُ إذا جاءه الخائف من الناس يقول له (قوقل حيثُ شئت فإنك آمن)، يقصد نَم مثل ذكر طائر القطا، فإنَّ نوم ذكر القطا هو القوقلة.

وعبد الله بن سلام له إسلام قديم، وذلك بعد أن قدم النبي - - المدينة، وكانَ هو من أحبار اليهود.

ولصاحبنا هذا -رضي اللهُ عنه- قصة، يقصُصها بنفسه، يقول فيها: «إنه لما قدم النبي- - المدينة، انجفل الناس عليه، وكنت فيمن انجفل، فلما رأيته، عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، فكان أول شيء سمعته يقول: يا أيها الناس، أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصِلُوا الأرحام، وصَلُّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام».

ورُوِيَ عن أنس -رضي اللهُ عنه-: «أنَّ عبد الله بن سلام أتى رسول الله - - إلى المدينة ولم يكُ مسلمًا بعد، فقال للنبيِّ: إني سائلك عن ثلاثٍ لا يعلمها إلا نبي. ما أول أشراط الساعة؟ وما أول ما يأكل أهل الجنة؟ ومن أين يشبه الولد أباه وأمه؟».

فقال لهُ النبيُّ - -: أخبرَني بِهِنَّ جبريلُ آنفًا.

فقال عبد الله: ذاك عدو اليهود من الملائكة.

فقال عليه الصلاة والسلام: أما أول أشراط الساعةِ فنارٌ تخرج من المشرق، فتحشر الناس إلى المغرب، وأما أول ما يأكله أهل الجنة، فزيادة كبد حوت، وأما الشبه، فإذا سبق ماء الرجل نزع إليه الولد. وإذا سبق ماء المرأة نزع إليها.

عندَ ذلكَ قال عبد الله بن سلام: أشهد أنك رسول الله.

وقيل: بل كان رسول الله - - إذا أتى قباءً أمر مناديه فنادى بالصلاة فأذَّن، وإن كان في غير وقت صلاة، حتى يجتمع الناس إلى رسول الله - - ويعلمون بمكانه، فوافق ذلك عبد اللهِ ذات يوم وهو على نخلة يجتني منها رطبًا لعمةٍ له، فسمع منادي رسول الله - - فجاء إلى رسول الله - - فجلس عنده.

ثم عادَ إلى بستان عمتهِ وجلس عندها، فقالت له: يا ابن أخ، لمَ احتبست وقد عرفت أني لا آكل شيئًا حتى تأتيني؟

قال: يا عمة، كنت عند رسول الله - -.

فقالت له: كذبتَ والذي يُحلَفُ به ما كنتَ عنده، إلا أن تكون كنت عند موسى بن عمران.

قال: لم أكن عند موسى بن عمران.

فقالت: عند النبي الذي يبعث قبيل الساعة؟

قال: نعم، من عنده جئت.

فرجع إلى النبي - - وقال له: «يا أبا القاسم، ثلاثة أشياء إن أنت حدثتني بهنَّ فأنت رسول الله، أخبرني ما أول نُزُلٍ ينزله أهل الجنة، وتُخبرني عن آية الشبه من أين هي، وتُخبرني عن السواد الذي في القمر ما هو».

فقال رسول الله - -: أول نزل ينزله أهل الجنة بالم ونون.

فقال عبد الله: ما بالم ونون؟

قال عليه الصلاة والسلام: ثورٌ وحوتٌ يأكل من زائدةِ كبد أحدهما سبعون ألفًا، وأما الشبه فأي النطفتين سبقت إلى الرحم من الرجل والمرأة فالولد له أشبه، وأما السواد الذي في القمر فإنهما كانا شمسين فقال الله -عز وجل-: وَجَعَ نَا لَّ لَ وَ لنَّهَارَ ءَايَتَ فَمَحَ نَآ ءَايَةَ لَّي لِ [سورة الإسراء، آية: 12]، فهو السواد الذي رأيت، فهو المحو فمحونا آية الليل.

فقال عبد الله بن سلام: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله.

وقال: يا رسول الله، إن اليهود قوم بُهت، وإنهم إن يعلموا بإسلامي بهتوني، فأرسِلْ إليهم، فسلهم عني.

فأرسل إليهم -عليه الصلاة والسلام- وجاؤوه.

فقال لهم: أي رجل ابن سلام فيكم؟

قالوا: حَبْرُنا، وابن حبرنا، وعالِمُنا، وابن عالِمِنا.

قال: أرأيتم إن أسلم، تُسلمون؟

قالوا: أعاذه الله من ذلك.

فخرج عبد الله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله.

فقالوا: شَرُّنا وابنُ شَرِّنا، وجاهِلُنا وابنُ جاهِلِنا.

فقال: يا رسول الله، ألم أخبرك أنهم قوم بُهت؟!

ومما رُوِيَ في إسلامه أنَّ نبيَّ الله -عليه الصلاة والسلام- أقبلَ إلى المدينة. فقالوا: «جاء نبي الله». فاستشرفوا ينظرون، وسمع ابن سلام (وهو في نخلٍ يخترف) فعجل قبل أن يضع التي يخترف فيها، فسمع من النبي - - ثم رجع إلى أهله. فلما خلا نبي الله، جاء، فقال: «أشهد أنك رسول الله، وأنك جئت بحق، ولقد علمت اليهود أني سيدهم وابن سيدهم، وأعلمهم وابن أعلمهم، فسلهم عني قبل أن يعلموا أني قد أسلمت، فإنهم إن يعلموا أني قد أسلمت قالوا فيما ليس في»، فأرسل إليهم فجاؤوا، فقال: «يا معشر اليهود، ويلكم! اتقوا الله، فوالله إنكم لتعلمون أني رسول الله حقًّا، وأني جئتكم بحق. فأسلموا». قالوا: «ما نعلمه». قال: «فأي رجل فيكم ابن سلام؟» قالوا: «ذاك سيدنا وابن سيدنا، وأعلمنا وابن أعلمنا»، قال: «أفرأيتم إن أسلم؟» قالوا: «حاشى لله، ما كان ليسلم». فقال: «اخرج عليهم». فخرج عليهم، وقال: «ويلكم اتقوا الله، فوالله إنكم لتعلمون أنه رسول الله حقًّا». قالوا: «كذبت». فأخرجهم رسول الله - -.

وذكر عبد الله بن حنظلة -رضيَ اللهُ عنهُ- أنهُ رأى عبد الله بن سلام في السوق، عليه حزمةٌ من حطب. فقيل له: «أليس أغناك الله؟» قال: «بلى، ولكن أردتُ أن أقمع الكبر، فقد سمعتُ رسول الله - - يقول: لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة خردل من كبر».

سبحان الله! يفعل عبد الله بن سلام هذا، وهو الذي عندما قال النبي -عليه الصلاة والسلام-: «يدخل من هذا الفج رجل من أهل الجنة»، فإذا عبد الله بن سلام قد جاء من الفجِّ. وهو الذي نزلَ فيهِ قولهُ تعالى: لَ سُواْ سَوَآ
مِّ أَ لِ كِتَٰبِ أُمَّة قَآئِمَة يَ لُونَ ءَايَٰتِ للَّهِ ءَانَآءَ لَّ ل
وَهُ يَ جُدُونَ ١١٣ يُ مِنُونَ بِ للَّهِ وَ يَ مِ ٱلۡأٓخِرِ
وَيَ مُرُونَ بِ مَ رُوفِ وَيَ هَ نَ عَنِ مُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي
خَ رَٰ وَأُوْلَٰئِكَ مِنَ لصَّٰلِحِينَ ١١٤ .
[سورة آل عمران، آية: 113 - 114].

وهو الذي رأى رؤيا فقصَّها على النبيِّ فقالَ لهُ خير البشر تأويلها: «تموت وأنت مستمسك بالعروة الوثقى»، ثمَّ تراهُ في السوقِ يقتلُ كِبْرَ نفسهِ الذي لم يظهر قط، ويحملُ حزمةَ حطب!

وقال عوف بن مالك: «انطلق نبي الله - - وأنا معه حتى دخلنا كنيسة اليهود، فقال: أروني يا معشر يهود اثني عشر رجلًا يشهدون أنَّ محمدًا رسول الله، يحطُّ اللهُ عنكم الغضب».

فأُسْكِتُوا. ثم أعاد عليهم، فلم يجبه أحد.

فقال -عليه الصلاة والسلام-: «فواللهِ لأنا الحاشر، وأنا العاقب وأنا المصطفى، آمنتم أو كذبتم».

فلمَّا كادَ يخرج -عليه الصلاة والسلام- قال رجلٌ: «كما أنتَ يا محمد. أيُّ رجلٍ تعلمونني فيكم؟».

قالوا: ما فينا أعلمُ منك.

قال: فإني أشهد بالله أنه نبي الله الذي تجدونه في التوراة.

فقالوا: كذبت.

فقال رسول الله - -: كذبتم.

قال عوف: فخرجنا ونحن ثلاثة. أيْ: معهم عبد الله بن سلام. فأنزل الله قولَهُ تعالى: قُ أَرَءَ تُ إِن كَانَ مِ عِندِ للَّهِ وَكَفَ تُم بِهِۦ
وَشَهِدَ شَاهِ مِّ بَنِيٓ إِ رَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِ لِهِۦ فَـَٔامَنَ

وَ   ﭐ   بَ   تُ   إِنَّ   للّهَ لَا يَ   دِي   قَ   مَ   لظّٰلِمِينَ ١٠
[سورة الأحقاف، آية: 10].

ولمَّا احتضر معاذ بن جبل، قعد يزيد بن عمارة -أحد طلبةِ معاذ- عند رأسه يبكي، فقال له معاذ: ما يُبكيك؟ قال: أبكي لِمَا فاتني من العلم. قال: إنَّ العلمَ كما هو لم يذهب، فاطلبه عند أربعةٍ: أبي الدرداء، وسلمان، وابن مسعود، وعبد الله بن سلام الذي قال رسول الله - - فيه: هو عاشر عشرة في الجنة.

وتُوفي عبد الله بن سلام -رضي اللهُ عنه- سنة ثلاث وأربعين للهجرة.

النجاشيُّ

ملكُ الحبَشَة

«لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإنَّ

بها ملكًا لا يُظلم عنده أحد».

- محمد -

كان الله -عز وجل- قد منعَ نبيه ورسوله بعمِّه أبي طالب، عندما وقع من البلاء على أصحابه واشتدَّ، فلما رأى رسول الله ما يصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية والمنعَة بمكانته من الله -عز وجل-، ثمَّ من عمه أبي طالب، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه، قال لهم: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإنَّ بها ملكًا لا يُظلم عنده أحد، وهي -أرض صدق- حتى يجعل الله لكم فرجًا مما أنتم فيه».

فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة، وفرارًا إلى الله بدينهم.

فكانت أول هجرة في الإسلام، فكان أول من خرج من المسلمين عثمان بن عفان، وزوجته رقية بنت رسول الله.

فعن أنس بن مالك أنه قال: خرج عثمان بن عفان، ومعه امرأته رقية بنت رسول الله، إلى أرض الحبشة، فأبطأ على رسول الله خبرهما، فقدمت امرأة من قريش فقالت: «يا محمد، قد رأيت ختنك ومعه امرأته». قال: «على أي حال رأيتهما؟» قالت: «رأيته قد حمل امرأته على حمار وهو يسوقها». فقال رسول الله: «صحبهما الله، إن عثمان أول من هاجر بأهله بعد لوط عليه السلام».

وروى الواقدي: «إنَّ خروجهم إليها في رجب سنة خمس من البعثة، وإنَّ أول مَن هاجر منهم أحد عشر رجلًا وأربع نسوة، وإنهم انتهوا إلى البحر ما بين ماشٍ وراكبٍ فاستأجروا سفينةً بنصف دينار إلى الحبشة».

وهم: عثمان بن عفان، وامرأته رقية بنت رسول الله، وأبو حذيفة بن عتبة، وامرأته سهلة بنت سهيل، والزبير بن العوام، ومصعب بن عمير، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو سلمة بن عبد الأسد، وامرأته أم سلمة بنت أبي أمية، وعثمان بن مظعون، وعامر بن ربيعة العنزي، وامرأته ليلى بنت أبي حثمة، وأبو سبرة بن أبي رهم، وحاطب بن عمرو، وسهيل بن بيضاء، وعبد الله بن مسعود -رضي الله عنهم أجمعين-.

قال الطبري وآخرون: «بل كانوا اثنين وثمانين رجلًا، غير نسائهم وأبنائهم، أو ثلاثة وثمانين رجلًا».

ومن المواقف التي لا تُنسى في الهجرة إلى الحبشة، موقف عمر بن الخطاب قبلَ أن يُسلم، وذلك أنَّ المسلمين كانوا يستعدون للهجرة، فمرَّ عمر ورأى امرأةً هي أم عبد الله بنت أبي حثمة وهي تهمُّ بالهجرة، وقد كان عمر شديدًا على المسلمين، فتحكي قصتها فتقول: «والله إنا لنترحل إلى أرض الحبشة وقد ذهب عامر في بعض حاجتنا، إذ أقبل عمر فوقف عليَّ وهو على شركه، وقد كنا نلقى منه أذى لنا وشدة علينا، فقال: «إنه الانطلاق يا أم عبد الله؟» قلت: «نعم! والله لنخرجن في أرض من أرض الله إذ آذيتمونا وقهرتمونا حتى يجعل الله لنا مخرجًا»، فقال: «صحبكم الله»، ورأيت له رقة لم أكن أراها، ثم انصرف وقد أحزنه خروجنا.

فجاء عامر -وهو زوجها- بحاجتنا تلك، فقلت له: «يا أبا عبد الله لو رأيت عمر آنفًا ورقته وحزنه علينا!»، قال: «أطمعتِ في إسلامه؟»، قلت: «نعم!»، قال: «لا يسلم الذي رأيت حتى يسلم حمار الخطاب». لكنْ يشاءُ اللهُ ويُسلم عمر، يا الله!».

نعودُ لقصتنا.. بعد أن قال النبيُّ لأصحابه اخرجوا إلى الحبشة للنجاشي، واسمه أصحمة، أو مصحمة، وهو أصحمة بن بحر، وكان عبدًا صالحًا لبيبًا ذكيًّا، وكان عادلًا عالمًا -رضي الله عنه وأرضاه- ويعني اسمهُ بالعربية «عطية».

فإنهم خرجوا إليها أرسالًا حتى اجتمعوا بها، فنزلوا بخير دار إلى خير جار آمنين على دينهم، ولم يخشوا فيها ظلمًا، فلما رأت قريش أنهم قد أصابهم دارٌ وأمن، غاروا منهم، فاجتمعوا على أن يبعثوا إلى النجاشي يكلموه فيهم ليخرجوهم من بلاده، وليردوهم عليهم، فبعثوا عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة، فجمعوا له هدايا ولبطارقته، فلم يدعوا منهم رجلًا إلا هيّؤوا له هدية على حدة.

وقالت قريش لرسولَيهما: ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تتكلما فيهم، ثم ادفعا إليه هداياه، فإن استطعتما أن يردهم عليكما قبل أن يكلمهم فافعلا.

فقدمَ عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة عليهم، فلم يبقَ بطريق من بطارقة النجاشي إلا قدَّما إليه هديته، فكلمَاهم وقالَا لهم: «إنما قدمنا على هذا الملك في سفهائنا، فارقوا أقوامهم في دينهم ولم يدخلوا في دينكم، فبعَثَنا

قومهم ليردهم الملك عليهم، فإذا نحن كلمناه فأشيروا عليه بأن يفعل». فقالوا: «نفعل».

ثم ذهبوا إلى النجاشيِّ قدَّموا إليه هداياه، وكان من أحب ما يهدون إليه من مكة الأدم، وأهدوا إليه فرَسًا، وجبَّة ديباج، فلما أدخلوا عليه هداياه، قالوا له: «أيها الملك، إن فتية منا سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك وجاؤوا بدين مبتدع لا نعرفه، وقد لجؤوا إلى بلادك، وقد بعثنا إليك فيهم عشائرهم، آباءهم وأعمامهم وقومهم لتردهم عليهم، فإنهم أعلى بهم عينًا، فإنهم لن يدخلوا في دينك فتمنعهم لذلك». فغضب ثم قال:

«لا لعمر الله! لا أردهم عليهم حتى أدعوهم، فأكلمهم وأنظر ما أمرهم، قوم لجؤوا إلى بلادي واختاروا جواري على جوار غيري، فإن كانوا كما يقولون رددتهم عليهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم، ولم أدخل بينهم وبينهم، ولم أنعم عينًا وإن أمراءه أشاروا عليه بأن يردهم إليهم».

فقال: «لا والله! حتى أسمع كلامهم وأعلم على أي شيء هم عليه».

فلما دخلوا عليه سلموا ولم يسجدوا له، فقال: «أيها الرهط، ألا تحدثوني ما لكم لا تحييونني كما يحييني من أتانا من قومكم؟ فأخبروني ماذا تقولون في عيسى وما دينكم؟ أنصارى أنتم؟».

قالوا: لا.

قال: أفيهود أنتم؟

قالوا: لا.

قال: فعلى دين قومكم؟

قالوا: لا.

قال: فما دينكم؟

قالوا: الإسلام.

قال: وما الإسلام؟

قالوا: نعبد الله لا نشرك به شيئًا.

قال: من جاءكم بهذا؟

قالوا: جاءنا به رجل من أنفسنا، قد عرفنا وجهه ونسبه، بعثه الله إلينا كما بعث الرسل إلى من قبلنا، فأمرنا بالبر والصدقة والوفاء وأداء الأمانة، ونهانا أن نعبد الأوثان وأمرنا بعبادة الله وحده لا شريك له، فصدقناه، وعرفنا كلام الله، وعلمنا أن الذي جاء به من عند الله، فلما فعلنا ذلك عادانا قومنا، وعادوا النبي الصادق وكذبوه وأرادوا قتله، وأرادونا على عبادة الأوثان، ففررنا إليك بديننا ودمائنا من قومنا.

قال: والله إن هذا لمن المشكاة التي خرج منها أمر موسى.

ثمَّ قال جعفر -رضي اللهُ عنه-: «وأما التحية، فإن رسول الله أخبرنا أن تحية أهل الجنة السلام، وأمرنا بذلك فحييناك بالذي يحيي بعضنا بعضًا».

هذا بعضُ ما حدث، لكن لماذا نروي البعض وقد روَت أمُّ سلمةَ -رضي اللهُ عنها- القصة كاملةً وموسَّعة، فلنستمع إليها -رضي اللهُ عنها-. تقول أمُّ سلمة: «لما ضاقت مكة، وأوذي أصحاب رسول الله، وفتنوا، ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة في دينهم، وأن رسول الله لا يستطيع دفع ذلك عنهم، وكان رسول الله في منعة من قومه، ومن عمه، لا يصل إليه شيء مما يكره، ومما ينال أصحابه، فقال لهم رسول الله: «إن بأرض الحبشة ملكًا لا يُظلم أحد عنده فألحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجًا ومخرجًا مما أنتم فيه».

وقيل إن أبا طالب لما رأى صنيع قريش بإرسالهم عمرو وعمارة كتابًا إلى النجاشي يحضه فيها على العدل وعلى الإحسان إلى من نزل عنده من قومه:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي كَيْفَ فِي النَّأْيِ جَعْفَرٌ	وَعَمْرٌو وَأَعْدَاءُ الْعَدُوِّ الْأَقَارِبُ
وَمَا نَالَتْ أَفْعَالُ النَّجَاشِيِّ جَعْفَرًا	وَأَصْحَابَهُ أَوْ عَاقَ ذَلِكَ شَاغِبُ
تَعَلَّمْ، أَبَيْتَ اللَّعْنَ، أَنَّكَ مَاجِدٌ	كَرِيمٌ فَلَا يَشْقَى لَدَيْكَ الْمُجَانِبُ
تَعَلَّمْ بِأَنَّ اللَّهَ زَادَكَ بَسْطَةً	وَأَسْبَابَ خَيْرٍ كُلُّهَا بِكَ لَازِبُ

فأرسل إليهم النجاشي فجمعهم ولم يكن شيء أبغض لعمرو بن العاص وعمارة بن الوليد من أن يسمع كلامهم.

فلما جاءهم رسول النجاشي اجتمع القوم فقالوا: ماذا تقولون؟

فقالوا: وماذا نقول؟ نقول والله ما نعرف، وما نحن عليه من أمر ديننا، وما جاء به نبينا كائن من ذلك ما كان، فلما دخلوا عليه كان الذي يكلمه منهم جعفر بن أبي طالب -رضي الله عنه-.

فقال له النجاشي: ما هذا الدين الذي أنتم عليه؟ فارقتم دين قومكم ولم تدخلوا في يهودية ولا نصرانية.

فقال له جعفر: أيها الملك كنا قومًا على الشرك ونعبد الأوثان ونأكل الميتة ونسيء الجوار يستحل المحارم بعضنا من بعض في سفك الدماء وغيرها، لا نحل شيئًا ولا نحرمه.

فبعث الله إلينا نبيًّا من أنفسنا نعرف وفاءه وصدقه وأمانته فدعانا إلى أن نعبد الله وحده لا شريك له، ونصل الأرحام، ونحمي الجوار، ونصلي لله -عز وجل- ونصوم له، ولا نعبد غيره.

وقيل بل إنَّ جعفر قد قال: «فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الأرحام، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام. (فعدَّدوا عليه أمور الإسلام) فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من عند الله، فعبدنا الله وحده لا شريك له ولم نشرك به شيئًا، وحرمنا ما حُرِّم علينا، وأحللنا ما أُحِل لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا ليفتنونا عن ديننا ويردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك ورجونا ألا نُظلم عندك أيها الملك».

قالت: فقال له النجاشي: «هل معك شي مما جاء به عن الله؟ وقد دعا أساقفته فأمرهم فنشروا المصاحف حوله».

فقال له جعفر: نعم.

قال: هلم فاِتْلُ عليَّ مما جاء به.

فقرأ عليه صدرًا من كهيعص فبكى والله النجاشي حتى أخضلت لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم.

ثم قال لهم: إن هذا الكلام ليخرج من المشكاة التي جاء بها موسى، انطلقوا راشدين لا والله لا أردهم عليكم ولا أنعمكم عينًا.

فقال عمرو بن العاص: «والله لآتينه غدًا بما أستأصل به خضراءهم، ولأخبرنه إنهم يزعمون أن إلهه الذي يعبد عيسى ابن مريم عبد».

فلما كان الغد دخل عليه فقال: «أيها الملك، إنهم يقولون في عيسى قولًا عظيمًا، فأرسل إليهم فسلهم عنه».

فبعث والله إليهم ولم ينزل بنا مثلها.

فقال بعضُنا لبعضٍ: ماذا تقولون له في عيسى إن هو يسألكم عنه؟

فقالوا: نقول والله الذي قاله الله فيه، والذي أمرنا نبينا أن نقوله فيه، فدخلوا عليه وعنده بطارقته.

فقال: ما تقولون في عيسى ابن مريم؟

فقال له جعفر: نقول هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول.

فدلى النجاشي يده إلى الأرض فأخذ عودًا بين إصبعيه فقال: ما عدا عيسى ابن مريم مما قلت هذا العويد.

فتناخرت بطارقة النجاشيِّ، فقال: وإن تناخرتم والله! اذهبوا فأنتم سيوم في الأرض (الآمنون في الأرض) ومن سبكم غرم، من سبكم غرم، من سبكم غرم، (قالها ثلاثًا) ما أحب أن لي دبرًا أو زبرًا من ذهب (أي جبل من ذهب بلغة أهل الحبشة) وأني آذيت رجلًا منكم.

ثم قال النجاشي: فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين ردَّ عليّ ملكي، ولا أطاع الناس في فأطيع الناس فيه. ردُّوا عليهما هداياهما فلا حاجة لي بها واخرجا من بلادي.

فخرجا مقبوحين مردودًا عليهما ما جاءا به.

تقول أم سلمة: «فأقمنا مع خير جار في خير دار، فلم نلبث أن خرج عليه رجل من الحبشة ينازعه في ملكه، فوالله ما علمنا حزنًا قط هو أشد منه، فرقا من أن يظهر ذلك الملك عليه فيأتي ملك لا يعرف من حقنا ما كان يعرفه، فجعلنا ندعو الله ونستنصره للنجاشي فخرج إليه سائرًا، فقال أصحاب

رسول الله بعضهم لبعض: «من يخرج فيحضر الوقعة حتى ينظر على من تكون؟».

وقال الزبير -وكان من أحدثهم سنًّا-: «أنا». فنفخوا له قربة فجعلها في صدره، فجعل يسبح عليها في النيل حتى خرج من شقه الآخر إلى حيث التقى الناس فحضر الوقعة فهزم الله ذلك الملك وقتله، وظهر النجاشي عليه.

فجاءنا الزبير فجعل يليح لنا بردائه ويقول: «ألا فأبشروا، فقد أظهر الله النجاشي».

قلت: «فوالله ما علمنا أننا فَرِحنا بشيء قط فَرَحنا بظهور النجاشي». ثم أقمنا عنده حتى خرج من خرج منا إلى مكة وأقام من أقام.

ثمَّ إنَّ النجاشي أسلم، ولما أسلمَ اجتمعت الحبشة وهاجت وماجت، فقالوا للنجاشي: «إنك فارقت ديننا». وخرجوا عليه، فأرسل النجاشي إلى جعفر وأصحابه وهيأ لهم سُفُنًا.

وقال: اركبوا فيها وكونوا كما أنتم، فإن هزمت فامضوا حتى تلحقوا بحيث شئتم، وإن ظفرت فاثبتوا.

ثم عَمَدَ إلى كتابٍ فكتب فيه: هو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، ويشهد أن عيسى عبده ورسوله وروحه، وكلمته ألقاها إلى مريم، ثم جعله في قبائه عند المنكب الأيمن، وخرج إلى الحبشة وصفوا له.

فقال: يا معشر الحبشة، ألست أحق الناس بكم؟

قالوا: بلى!

قال: فكيف أنتم بسيرتي فيكم؟

قالوا: خير سيرة.

قال: فما بكم؟

قالوا: فارقت ديننا، وزعمت أن عيسى عبده ورسوله.

قال: فما تقولون أنتم في عيسى؟

قالوا: نقول هو ابن الله.

فقال النجاشي -ووضع يده على صدره على قبائه-: وهو يشهد أن عيسى ابن مريم لم يزد على هذا، وإنما يعني على ما كتب.

فرضوا وانصرفوا.

مرَّت الأيام، وهاجر رسول الله إلى المدينة وبعض المهاجرين ما زالوا بالحبشة، وظهر لهم بها أنَّ رسول الله قد ظهر على قريش، وهاجر إلى المدينة، وقتل الذين كنا حدثناك عنهم، وقد أردنا الرحيل إليه، فردنا.

قال: نعم!

فحملنا، وزودنا.

ثم قال: أخبر صاحبك بما صنعت إليكم، وهذا صاحبي معكم، أشهد أن لا إله إلا الله وأنه رسول الله، وقل له يستغفر لي.

قال جعفر: فخرجنا حتى أتينا المدينة، فتلقاني رسول الله، واعتنقني، ثم قال: ما أدري أنا بفتح خيبر أفرح أم بقدوم جعفر. ووافق ذلك فتح خيبر، ثم جلس فقال رسول النجاشي: هذا جعفر فسله ما صنع به صاحبنا.

فقال: نعم فعل بنا كذا وكذا وحملنا وزودنا، وشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله.

وقال لي: قل له يستغفر لي، فقام رسول الله فتوضأ، ثم دعا ثلاث مرات: اللهم اغفر للنجاشي.

فقال المسلمون: آمين.

ثم قال جعفر لرسول النجاشي: انطلق فأخبر صاحبك بما رأيت من رسول الله.

وقيل إن النجاشي أرسل للنبيَّ المسلمين للمدينة وقدموا معهم بهدايا وتحف من عند النجاشي -رضي الله عنه- إلى النبي، وصحبتهم أهل السفينة اليمنية أصحاب أبي موسى الأشعري وقومه من الأشعريين -رضي الله عنهم-، ومع جعفر وهدايا النجاشي ابن أخي النجاشي: ذونخترا أو ذومخمرا، أرسله ليخدم النبي عوضًا عن عمه -رضي الله عنهما وأرضاهما-.

فعن أبي أمامة قال: قدم وفد النجاشي على رسول الله فقام يخدمهم، فقال أصحابه: نحن نكفيك يا رسول الله. فقال: إنهم كانوا لأصحابي مكرِمين وإني أحب أن أكافيهم.

وذلك لأنَّهُ بعث رسول الله عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي في شأن جعفر بن أبي طالب وأصحابه، وكتب معه كتابًا: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى النجاشي الأصحم ملك الحبشة، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الملك القدوس المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطاهرة الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى فخلقه من روحه ونفخته، كما خلق آدم بيده ونفخه.

وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته، وأن تتبعني فتؤمن بي وبالذي جاءني، فإني رسول الله وقد بعثت إليك ابن عمي جعفرًا ومعه نفر من المسلمين، فإذا جاؤوك فأقرهم ودع التجبر، فإني أدعوك وجنودك إلى الله -عز وجل-، وقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتي، والسلام على من اتبع الهدى».

فكتب النجاشي إلى رسول الله: «بسم الله الرحمن الرحيم، إلى محمد رسول الله من النجاشي الأصحم بن أبجر، سلام عليك يا نبي الله من الله ورحمة الله وبركاته، لا إله إلا هو الذي هداني إلى الإسلام، فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى، فورب السماء والأرض إن عيسى ما يزيد على ما ذكرت. وقد عرفنا ما بعثت به إلينا وقرينا ابن عمك وأصحابه، فأشهد أنك رسول الله صادقًا ومصدقًا، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك وأسلمت على يديه لله رب العالمين. وقد بعثت إليك يا نبي الله بأربحا بن الأصحم بن أبجر، فإني لا أملك إلا نفسي، وإن شئت أن آتيك فعلت يا رسول الله فإني أشهد أن ما تقول حق».

مضَت الأيام، حتى بلغ رسول الله موت النجاشي، فصلى عليه النبي واستغفر له.

وقد ثبت في (الصحيحين) من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه-: أن رسول الله نعى النجاشي في اليوم الذي مات فيه، وخرج بهم إلى المصلى فصف بهم وكـبَّر أربع تكبيرات.

وقال البخاري: عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله - - حين مات النجاشي: «مات اليوم رجل صالح، فقوموا فصلوا على أخيكم أصحمة».

وقيلَ إنما صلى عليه النبيُّ لأنه كان يكتم إيمانه عن قومه، فلم يكن عنده يوم مات من يصلي عليه فلهذا صلى عليه.

رحمَ اللهُ النجاشيَّ أصحمة، وألحقَنا بهِ مع النبيين والصديقين والشهداء».

غزوة تبوك

حينَ يبتلي الله الصادقين

﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي حَ قُ نَارُ جَهَنَّمَ
أَشَدُّ حَرّٗا لَّ كَانُواْ يَ قَهُونَ﴾

[سورة التوبة، الآية: 81]

كانت غزوة تبوك في شهر رجب من السنة التاسعة للهجرة، وسببها أنَّ هرقل أراد أن يجمع جموع الروم وما والاهم من قبائل العرب التي تتبع له، وأراد أن يصمد بهم إلى النبي -عليه الصلاة والسلام-، فسمع رسول الله - - بذلك، فندب النبي الناس إلى الجهاد وانطلقوا إلى تبوك، وتُسمى هذه الغزوة أيضًا بغزوة العسرة، لأنها كانت في وقت اجتمعت فيه أنواعٌ من العسرة، كانت في وقتٍ شديد الحر، وكانت المسافة بعيدة حوالي 700 كيلومتر شمال المدينة، والظَّهرُ قليل، أي إنَّ الرواحل التي تركب الناس على ظهورها قليلة، وربما تعاقب على الراحلة الواحدة راكبان أو ثلاثة، والزاد قليل أيضًا، فكانت عسرة في الحر وعسرة في الماء وعسرة في الزاد وعسرة في الطريق، لذلك قال الله -سبحانه وتعالى-: لَّقَد تَّابَ للَّهُ عَلَى لنَّبِيِّ وَ مُهَٰجِرِينَ وَ أَنصَارِ لَّذِينَ تَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ عُ رَةِ مِ بَ دِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِي مِّ هُ ثُمَّ تَابَ عَلَ هِ إِنَّهُ بِهِ رَءُو رَّحِي ١١٧ [سورة التوبة، آية: 117]. وكانت في وقت طابت فيه الثمار، فالناس عادةً تحب أن تمكث في ظلالها وفي ثمارها وفي بساتينها وكانت تكره أن تخرج من هذا كله لأقرب مكان ولو قربَ المدينة، فكيف بمكان بعيد عنها بـ 700 كيلومتر عن المدينة، وكان من عادة النبي -عليه الصلاة والسلام- إذا أراد أن يخرج لغزوة من الغزوات يكنِّي عنها بمكان آخر، يورِّي عنها ولا يعلنها ويفصح للناس عن وجهته، لأنَّ في المدينةِ منافقين وعيونًا وجواسيس، فلا يحب أن يبلغ خبره لعدوه، فلذلك كان يفعل ذلك، إلا في غزوة تبوك، فإنَّ النبي -عليه الصلاة والسلام- لأجل ما لقي من بُعد الشُّقة وكثرة العدو وشدة الحر، جلَّى للناس أمرهم وأخبرهم بأنه يريد الروم ليتأهبوا لذلك أهبته، وقد ورد في الأحاديث ما يصف لنا شيئًا من هذه العسرة التي كانت في الناس ذلك الوقت، من ذلك ما رواه ابن حيان عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه قيل لعمر بن الخطاب: «حدثنا عن شأن العسرة». فقال رضي الله عنه: «إننا خرجنا مع رسول الله - - في قيظ شديد».

ونقف هنا لنعرف أنَّ كلمة «قيظ» وحدَها تكفي لتبيِّن شدة الحر، لكن زاد عمر أنه قال في «قيظ شديد»، أي إنَّه كانَ حرًّا لا يُوصَف ولا يُحتمل.

يُكمِل عمر فيقول: «فنزلنا منزلًا أصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، حتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه، ثمَّ يجعل ما بقي على كبده، فجاء أبو بكر إلى النبي - - فقال أبو بكر: «يا رسول الله، إن الله قد عوَّدك في دعائك خيرًا فادعُ لنا». فقال له النبي - -: «أو تحبُّ ذلك؟». قال: «نعم». قال: «فرفع رسول الله يديه فلم يرجعهما حتى أظلت سحابة فسكبت فملؤوا ما معهم، فذهبنا فلم نجدها -أي السحابة- جاوزَت العسكر».

وهذا يدلكم على عسرة الماء والعطش، ومن الأشياء التي تبين العسرة التي كانت في ذلك الوقت ما رواه مسلم عن أبي هريرة أو أبي سعيد قال: «لما كانت غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة: عطشٌ فلا ماء، ومجاعةٌ فلا أكل، ويجيبنا رسول الله»، فقالوا: «يا رسول الله، لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا فأكلنا وادَّهنَّا». فقال لهم رسول الله - -: «افعلوا». فجاء عمر فقال: «يا رسول الله، إن فعلت ذلك قلَّ الظهر». يقصد أنه يقلّ ما يركب الناس عليه، لأنه الآن يرتدف الاثنان والثلاثة على ظهر واحد، فكيف لو نحروا رواحلهم، ولكن ادعهم بفضل أزوادهم ثمَّ ادعُ الله عليها بالبركة لعلَّ الله أن يجعل في ذلك. فقال رسول الله - -: «نعم». ثمَّ أمر بنطع، وهي قطعة جلد أو قماش، فبسطه ثمَّ دعا بفضل أزواد الناس، فجعل الرجل يأتي بكفِّ ذرة، الآن جيش العسرة قوامه قريبًا من 30 ألفَ مجاهد، ندبهم إلى أن يأتوا بطعامهم فيجيء الرجل بكفِّ ذرة، فما يصنع بـ 30 ألفًا، وجعل الرجل يأتي بكفِّ تمر، وجعل الرجل يأتي بالكسرة، حتى اجتمع من ذلك شيء يسير، فدعا عليه رسول الله - - بالبركة، ثمَّ قال: «خذوا في أوعيتكم». ثم قال: «أخذوا في أوعيتهم حتى ما تركوا وعاء في العسكر إلا ملؤوه، فأكلوا حتى شبعوا، وفضلت منه فضلة، فلما رأى رسول الله - - ذلك، قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، لا يلقى بها الله رجلٌ غير شاك فيُحجب عن الجنة».

نسأل الله ألا يحجبنا عنها.

ثمَّ دعا رسول الله الأحياء التي في طريقه والناس ولم يستثنِ أحدًا، فاستجاب له قريب من 30 ألف مجاهد وتخلَّف عنه أقوام، فقرَّعهم الله -سبحانه وتعالى-، وقرَّع من تخلَّف من غير عذر من المنافقين، ووبَّخهم أشدَّ توبيخ، وفضحهم أشدَّ الفضيحة، وأنزل فيهم قرآنًا يُتلى وذلك في سورة التوبة،

في قوله تعالى: إِنَّمَا لسَّبِيلُ عَلَى لَّذِينَ يَ ذِنُونَكَ وَهُ أَ نِيَآ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ خَوَالِفِ وَطَبَعَ للَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِ فَهُ لَا يَ لَمُونَ ٩٣ يَ تَذِرُونَ إِلَ كُ إِذَا رَجَ تُ إِلَ هِ قُل لَّا تَ تَذِرُواْ لَن نُّ مِنَ لَكُ قَ نَبَّأَنَا للَّهُ مِ أَ بَارِكُ وَسَيَرَى للَّهُ عَمَلَكُ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ غَ بِ وَ لشَّهَٰدَةِ

فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُ تَ مَلُونَ ٩٤ سَيَ لِفُونَ بِ للَّهِ لَكُ إِذَا نقَلَ تُ إِلَ هِ لِتُ رِضُواْ عَ هُ فَأَ رِضُواْ عَ هُ إِنَّهُ رِ وَمَ وَىٰهُ جَهَنَّمُ جَزَآ بِمَا كَانُواْ يَ سِبُونَ ٩٥ يَ لِفُونَ لَكُ لِتَ ضَ اْ عَ هُ فَإِن تَ ضَ اْ عَ هُ فَإِنَّ للَّهَ لَا يَ ضَىٰ عَنِ قَ مِ فَٰسِقِينَ ٩٦ [سورة التوبة، الآية: 93 - 96]. وأمر الله تعالى المؤمنين بالنفْر مع رسول الله - - على كلِّ حال، فقال سبحانه وتعالى: نفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَ وَٰلِكُ وَأَنفُسِكُ فِي سَبِيلِ للَّ ذَٰلِكُ خَ لَّكُ إِن كُنتُ تَ لَمُونَ ٤١ [سورة التوبة، الآية: 41].

وكان الناس في جهد وفي شدة فدعا رسول الله - - إلى الصدقة، فكان من أكثر الناس صدقةً في ذلك النهار عثمان بن عفان -رضي الله عنه-. روى الإمام أحمد والترمذي في ذلك أنه جاء عثمان بن عفان بألف دينار في ثوبه لما جهَّز رسول الله - - جيش العُسرة.

ولكي نفهم، 1000 دينار أتعرفونَ كم تعادل؟ إنها تعادل 4250 جرامًا من الذهب، ولكم أن تتخيلوا كم تبلغ ذلك الوقت من القيمة.

جاء عثمان بن عفان -رضي الله عنه- فصبَّ الدنانير الذهبية في حجر النبي -عليه الصلاة والسلام-، فجعل النبي - - يقلِّبها بكفيه في حجره وهو يقول: «ما ضرَّ ابن عفان ما عمل بعد اليوم»، ويكررها كثيرًا وهو يقلِّب الدنانير بكفيه الشريفتين -عليه الصلاة والسلام-.

رجلٌ من العشرة المبشرين بالجنة ويقول له النبي -عليه الصلاة والسلام- هذا، ورغمَ ذلكَ لم يزدد عثمان إلا خجلًا وحياءً من الله ورغبةً فيما عنده، وجاء عبد الرحمن بن عوف فتصدَّق بنصف ماله، وجاء عمر بن الخطاب بمال كثير

بـ(200 أوقية من الذهب)، وتصدق الناس، وأراد كذلك قوم من الفقراء والضعفاء أن يسابقوا ويتصدقوا بما عندهم من الشيء البسيط، ليكونوا في جملة من يتصدق وفي جملة من ندبهم النبي -عليه الصلاة والسلام- للصدقة، فجاء رجلٌ من الفقراء بنصف صاعٍ من تمر، فأرجف به المنافقون فقالوا: «إنَّ الله لغني عن صدقة هذا». (يقصدون ماذا يفعل نصف صاع من تمر هذا)، ثمَّ جاء آخر من الفقراء وتصدق بأكثر منه، فقال المنافقون: «ما فعل هذا إلا رياءً». كأنهُ لا يعجبهم شيءٌ مما يفعله أصحاب النبي للنبيِّ والجهاد، فأنزل الله قوله الصاعق فيهم: ٱلَّذِينَ يَ مِزُونَ ٱ مُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱ مُ مِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُ دَهُمُ فَيَ خَرُونَ مِ هُ سَخِرَ ٱللَّهُ مِ هُ وَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٧٩ [سورة التوبة، آية: 79].

بل جاءتهم الطامة بالآية التي بعدها، حينَ قال اللهُ سبحانه وتعالى لنبيِّه: ٱ تَ فِ لَهُ أَ لَا تَ تَ فِ لَهُ إِن تَ تَغ فِ لَهُمْ سَ عِينَ مَرَّةً فَلَن يَ فِرَ ٱللَّهُ لَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ وَٱللَّهُ لَا يَ دِي ٱ قَ مَ ٱ فَٰسِقِينَ ٨٠ [سورة التوبة، آية: 80].

وفي هذا أيضًا نروي أغرب ما تُصُدِّقَ به في ذلك النهار، وهوَ أنَّ رجلًا جاء، وهو «عُلبة بن زيد بن حارثة» -رضي اللهم عنهما-، وليس له مالٌ يتصدق به أبدًا ولا زاد، فدعا الله وقال: «اللهمَّ إني لا مال عندي لأتصدَّق به، اللهمَّ إني أتصدَّق بعِرضي على من ناله من المسلمين»، يقصد أنه لو اغتابني أحد أو قال في عرضي شيئًا فهذا صدقة مني لك يا الله، لأنه يتمنى أن يكون من جملة المتصدقين في ذلك اليوم، فأمر النبي - - مناديًا ينادي: «مَن تصدَّق بعرضِه البارحة؟» فقام علبة وقال: «أنا يا رسول الله»، فقال له النبي -عليه الصلاة والسلام-: «قد قُبِلَت صدقتك»!

ولا تستغربوا، علبة بن زيد هو أحد البكائين المذكورين في القرآن، الذين جاؤوا للنبي -عليه الصلاة والسلام- يسترفدونه ويستحملونه ليحملهم معه في غزوة تبوك فلم يجد معه ما يعطيهم فأنزل الله فيهم قرآنًا يُتلى إلى يوم القيامة وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَ كَ لِتَ مِلَهُ قُ تَ لَآ أَجِدُ مَآ

أ ِمِلُكُ عَلَ ِهِ تَوَلّواْ وَّأ يُنُهُ تَفِيضُ مِنَ لدَّ عِ
حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ٩٢ [سورة التوبة، آية: 92].

في هذا الجو من البذل والإنفاق والمسارعة إلى الخير والمسابقة إلى مرضاة الله ورسوله كانت طائفة من المنافقين يثبطونَ الناس عن الجهاد زهادةً بالجهاد وإرجافًا برسول الله - - وتكذيبًا بالحق، وجعلوا يقولون للمجاهدين: «إلى أين أنتم ذاهبون والحر شديد؟»، فأنزل فيهم اللهُ -سبحانه وتعالى- قرآنًا: فَرِحَ مُخَلَّفُونَ بِمَ عَدِهِ خِلَٰفَ رَسُولِ للَّهِ
وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَ وَٰلِهِ وَأَنفُسِهِ فِي سَبِيلِ للَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ
فِي حَ قُ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّ لَّو كَانُواْ يَ قَهُونَ ٨١
فَ يَ حَكُواْ قَلِيلًا وَ يَ كُواْ كَثِيرًا جَزَآ
بِمَا كَانُواْ يَ سِبُونَ ٨٢ فَإِن رَّجَعَكَ للَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَ مِّ هُ
فَ ت ذَنُوكَ لِ خُرُوجِ فَقُل لَّن تَ رُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ
مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُ رَضِيتُم بِ ل قُعُودِ أَوَّلَ مَرَّ فَ عُدُواْ مَعَ
خَٰلِفِينَ ٨٣ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَ مِّ هُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُم عَلَىٰ
قَ رِهِ إِنَّهُ كَفَرُواْ بِ للَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُواْ وَهُ فَٰسِقُونَ ٨٤ وَلَا
تُ جِ كَ أَ وَٰلُهُ وَأَ لَٰدُهُ إِنَّمَا يُرِيدُ للَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم
بِهَا فِي لدُّ يَا وَتَ هَقَ أَنفُسُهُ وَهُ كَٰفِرُونَ ٨٥ وَإِذَآ أُنزِلَت سُورَةٌ
أَ ءَامِنُواْ بِ للَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ذَنَكَ أُوْلُواْ لطَّ لِ
مِ هُ وَقَالُواْ ذَ نَا نَكُن مَّعَ قَٰعِدِينَ ٨٦ [سورة التوبة].

وفي هذه الأيام قامت طائفة من المنافقين فبنوا مسجدًا في قباء، وقباء مدينة تبعد عن المدينة المنورة ميلين، زعموا أنهم يبنونه للضعفة والعجزة ممن لا يقدر على الصلاة مع النبي -عليه الصلاة والسلام- وسألوا النبي -عليه الصلاة والسلام- أن يصلي فيه ليباركه، ولكن المسجد كان حجة ومكانًا ليجتمعوا فيه ويديروا تآمرهم على المسلمين، ففضح الله سرائرهم وأنزل قوله: وَ لَّذِينَ تَّخَذُواْ مَس جِدًا ضِرَارًا وَكُف رًا وَتَ رِيِ ا بَي نَ
مُ مِنِينَ وَإِر صَادًا لِّمَ حَارَبَ للَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَ
وَلَيَ لِفُنَّ إِ أَرَ نَآ إِلَّا ل حُ نَ وَ للَّهُ يَ هَدُ إِنَّهُ لَكَٰذِبُونَ
١٠٧ لَا تَقُ فِيهِ أَبَدً لَّمَ جِدٌ أُسِّسَ عَلَى لتَّ وَىٰ

مِ أَوَّلِ يَ مٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيِ فِيهِ رِجَال يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُو
وَ للَّهُ يُحِبُّ مُطَّهِّرِينَ ١٠٨ أَفَمَ أَسَّسَ بُ يَٰنَهُ عَلَىٰ تَ وَىٰ مِنَ
للَّهِ وَرِ وَٰنٍ خَ رٌ أَم مَّ أَسَّسَ بُ يَٰنَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَا
فَ هَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّ وَ للَّهُ لَا يَ دِي قَ مَ لظَّٰلِمِينَ
١٠٩ لَا يَزَالُ بُ يَٰنُهُمُ لَّذِي بَنَ اْ رِيبَةً فِي قُلُوبِهِ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ
قُلُوبُهُ وَ للَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١١٠ . [سورة التوبة].

فلم يصلِّ فيه النبي -عليه الصلاة والسلام-، ولما عاد من تبوك أحرقه، ثمَّ لما أراد رسول الله - - أن يخرج من المدينة احتاج إلى أن يولي عليها أحدًا بعده ولا يترك من بقي فيها من أهلها ونسائها وأطفالها من دون والٍ عليها، فولَّى عليها علي بن أبي طالب -رضي الله عنه-، فقام المرجفون من المنافقين فقالوا: «ما تركه إلا تخففًا منه واستثقالًا له»، يقصدون أن عليًّا بن أبي طالب مجرَّد حِمل لا داعي له على الرسول -عليه الصلاة والسلام- لذلك لم يأخذه معه، هذا يعني أنَّ عليًّا لن يجاهد في تبوك، لكن النبي -عليه الصلاة والسلام- ردَّ الأمر في حلوقهم، وكان كلام المنافقين سببًا لتكون لعلي -رضي الله عنه- منقبة كبيرة ومفخرة بين بقية الصحابة، إذ يروي الشيخان في صحيحهما عن سعد بن أبي وقاص قال: «لما خرج رسول الله - - إلى تبوك فاستخلف على المدينة علي بن أبي طالب، حمل علي سلاحه وذهب للنبيِّ -عليه الصلاة والسلام- وقال له: «أتتركني في الصبية والنساء؟»، فقال له النبي -عليه الصلاة والسلام-: «ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه ليس بعدي نبي»، وهذا الإرجاف من المنافقين كان سببًا لهذا الفخر الكبير لعلي، أن يكون عند النبي - - بمنزلة هارون من موسى -عليهما السلام-» وهذه المنزلة كلنا نعرفها، وهي أنَّ موسى لما راح للقاء ربه ترك فيهم واليًا عليهم، وهو هارون -عليه السلام-، وهي الفترة التي انتهزها السامري فصنع العجل، ولولا ذلك لما أخبره النبي بهذا ولا عرفناه، فربَّ ضارةٍ نافعة.

ثمَّ انطلق رسول الله - - وحمل الناس إلى تبوك، وكان فيمن تخلَّف من الناس رجلٌ من الصحابة يُقال له بكنيته أبو خيثمة، ولم يكن له عذر، ولكن كما قلنا؛ إن الناس تحب أن تبقى في الظلال، والصحابة بشر، فلما سار النبي

-عليه الصلاة والسلام- أيامًا، خرج أبو خيثمة لبستانه في يومٍ شديد الحر ووقف عند بابه، فوجدَ زوجتَيه بالبستان كلُّ واحدةٍ قد هيأت له عريشًا ورشَّت العريش بالماء حتى يبرد، وجهَّزت له طعامًا وشرابًا وجلستا تنتظرانه، فوقف هو ورأى ذلك، فقال: «رسول الله - - في الحرِّ والضِّح والريح وأبو خيثمة في ظلٍّ بارد وطعامٍ مهيأ وزوجةٍ حسناء؟ والله ما هذا بالإنصاف، والله لا أدخل عريشَ واحدةٍ منكما حتى ألحق برسول الله - -، هيِّئا لي زادًا»، فهيَّأتا له زادًا فانطلق يتبع راحلته إلى رسول الله - -، فلم يدركه حتى كان النبي -عليه الصلاة والسلام- وأصحابه قد بلغوا تبوك، وبينما هُم في تبوك، رأوا خيالًا أبيض على راحلةٍ من بعيد في الأفق لم يتبينوه، فقالوا: «هذا راكبٌ على الطريق مُقبل»، فقال - -: «كُن أبا خيثمة»، فلما دنا منهم وتبيَّنوه قالوا: «يا رسول الله، هو والله أبو خيثمة».

وفي ذلك يقول أبو خيثمة -رضي الله عنه- شِعرًا:

لما رأيت الناس في الدين نافقوا	**أتيت التي كانت أعف وأكرما**
وبايعت باليمنى يدي لمحمد	**فلم أكتسب إثمًا ولم أغش محرما**
تركت خضيبًا في العريش وصرمة	**صفايا كرامًا بسرها قد تحمما**
وكنت إذا شك المنافق أسمحت	**إلى الدين نفسي شطره حيث يمما**

ولما كان الرسول - - في طريقه إلى تبوك مرَّ بالحِجر، ديار ثمود، فأمر أصحابه هناك بأوامر، وروى الشيخان عن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: لما نزل رسول الله - - في غزوة تبوك لما نزل بالحِجر أمر الناس ألا يشربوا من مائها ولا يستقوا من بئرها، فقالوا: «قد عجنَّا من مائها واستقينا». فأمرهم أن يطرحوا ذلك العجين ويهرقوا ذلك الماء وأن يُعلفوا الإبل العجين، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة، ثمَّ قال - -: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين حذرًا أن يصيبكم مثل ما أصابهم»، ثمَّ زجر -عليه الصلاة والسلام- ناقته فأسرع حتى خلَّف هذا الحِجر وراءه، وروى الإمام أحمد والحاكم في مستدركه عن جابر بن عبد الله -رضي الله

عنهما- أنه قال: «لما مرَّ رسول الله - - بالحِجر قال: «لا تسألوا الآيات (يقصد المعجزات) قد سألها قوم صالح، كانت ترد من هذا الفجِّ وتصدر من هذا الفجِّ، فعتوا عن أمر ربهم فعقروها»، قال عليه الصلاة والسلام: «كانت تشرب ماءهم يومًا ويشربون لبنها يومًا، فعقروها فأخذتهم الصيحة، أهمد الله مَن تحت أديم السماء منهم إلا رجلًا واحدًا كان في حرم الله -عزَّ وجل-»، فقيل: «من هو يا رسول الله؟»، قال: «هو أبو رغال، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه».

أبو رغال هذا كانت العرب تعرف قبره وترجم القبر إذا مرَّت عليه، وقبره يُقال بين الطائف ومكة، ويُقال إنَّ رجلًا آخر اسمه أبو رغال هو الذي ساعد أبرهة الحبشي ودلَّه على طريق مكة فمات في الطريق، وكانت تلعنه العرب وترجم قبره كذلك، وبذلك يقول جرير في هجو الفرزدق:

إذا مات الفرزدقُ فارجموه كرجم الناس قبر أبي رغالِ

نُكملُ قصتنا، وهي أنَّهم لما وصلوا إلى تبوك هبَّت عليهم ريحٌ شديدة، وقد قال لهم النبيُّ -عليه الصلاة والسلام- لما وصلوا تبوك: «ستهبُّ عليكم الليلة ريحٌ شديدة فلا يقُم منكم فيها أحد، ومن كان عنده بعيرٌ فليشد عِقاله»، فهبَّت تلك الليلة ريحٌ شديدة فقام فيها رجلٌ فحملته الريحُ وألقته في جبال طيء. ويروي المؤرخون إن بني طيءٍ قد حملوا الرجل وأعادوه للنبيِّ -عليه الصلاة والسلام-، وفي تبوك جاء للنبي -عليه الصلاة والسلام- رجلٌ اسمه حيَّة بنُ رُؤبة، صاحبُ «أيلة»، وأيلة هذه كانت مدينة قديمة جدًّا موقعها قُرب العقبة في الأردن، وصاحبها أي حاكمها وواليها، فدفع الجزية وكتب له النبيُّ -عليه الصلاة والسلام- كتابًا في ذلك وصالحه، ومكثَ رسول الله - - بضع عشرة ليلة لم يلقَ فيها أحدًا بتبوك، ثمَّ عاد.

لكنه لما كان في تبوك كتبَ إلى هرقل كتابهُ المشهور، وبعثَ به مع دحية بن خليفة الكلبيِّ إلى عظيم بُسرى، ثمَّ حمله عظيم بُسرى مع دحية إلى هرقل، ولما وصل كتاب النبي -عليه الصلاة والسلام- إلى هرقل، أراد هرقل قبل أن يقرأ الكتاب أن يعرف من هو صاحبه، وأن يتعرف عليه، وكان يعرف أن العرب تأتي لبلاده في التجارة، ولا بدَّ أن يكون في بلده قوم من العرب

يسألهم عن هذا الرجل، فأرسل هرقل من يأتيه برجال من العرب فوجدوا الداهية أبا سفيان وبعض النفر معه، فحملوه إلى كسرى وقد كانوا في تجارة.

روى ذلك الشيخان عن أبي سفيان -رضي الله عنه- أَنَّ هِرَقْلَ أَرْسَلَ إِلَيْهِ فِي رَكْبٍ مِنْ قُرَيْشٍ -وَكَانُوا تُجَّارًا بِالشَّأْمِ- فِي الْمُدَّةِ الَّتِي كَانَ رَسُولُ اللَّهِ - - مَادَّ فِيهَا أَبَا سفيان وَكُفَّارَ قُرَيْشٍ (والمدَّة هنا هيَ صلح الحديبية وقد اتفقوا أن تضع الحرب أوزارها بينهم 10 سنوات، فانشغل الناس بالتجارة في هذه الفترة)، فَأَتَوْهُ وَهُمْ بِإِيلِيَاءَ فَدَعَاهُمْ فِي مَجْلِسِهِ، وَحَوْلَهُ عُظَمَاءُ الرُّومِ ثُمَّ دَعَاهُمْ، وَدَعَا بِتَرْجُمَانِهِ فَقَالَ: أَيُّكُمْ أَقْرَبُ نَسَبًا بِهَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ؟ فَقَالَ أبو سفيان: فَقُلْتُ أَنَا أَقْرَبُهُمْ نَسَبًا. فَقَالَ: أَدْنُوهُ مِنِّي، وَقَرِّبُوا أَصْحَابَهُ، فَاجْعَلُوهُمْ عِنْدَ ظَهْرِهِ. ثُمَّ قَالَ لِتَرْجُمَانِهِ: قُلْ لَهُمْ إِنِّي سَائِلٌ هَذَا (يقصد أبا سفيان) عَنْ هَذَا الرَّجُلِ (عن النبيِّ)، فَإِنْ كَذَبَنِي فَكَذِّبُوهُ. فَقال أبو سفيان: وَاللَّهِ لَوْلاَ الْحَيَاءُ مِنْ أَنْ يَأْثِرُوا عَلَيَّ كَذِبًا لَكَذَبْتُ عَنْهُ.

كان هرقل وقتها، قيصر دولة الروم، موجودًا في مدينة إيلياء في بلاد الشام، فعرف بوجود قافلة تجاريَّة من قبيلة قريش في مكة المكرَّمة، فدعا هرقل أفرادَ هذه القافلة من العرب، ثم أراد أن يتعرَّف على الأقرب نسبًا من النبي محمد - -، فتقدَّم إليه أبو سفيان بن حرب، وهو مِن وُجهاء قريش، وكان ما يزال على الكُفر، ويُناصب الرسولَ محمدًا العَداءَ، وهنا طَلَبَ هرقل مِن الترجمان أن يجعل باقيَ العرب المرافقين لأبي سفيان خلْف زعيمهم، ليعترضوا عليه إذا كَذَب في شيء، وهذا دليل على رغبة الرجل في الاستيثاق مِن كلام أبي سفيان، وردِّه مِن قِبَل قومِه إذا أخطأ، والرواية هنا على لسان أبي سفيان، الذي مَنعَه الحياءُ مِن قومه، ومن المجلس أن يغيِّر أقواله، فالتزمَ الصِّدق في كل ما قيل. وعلى الرغم من أنَّ أبا سفيان لو كذب وقتها فلن يكذِّبه الذين خلفه لأنهم كلهم أعداء للنبيِّ وينتظرون فرصة الاستنقاص منه والظفر عليه، لكنَّ أخلاق العرب وكرامتهم على الرغم من شركهم وكفرهم تأبى عليهم أن يقال عنهم كذابين، ووالله إنه لحقيقٌ بنا أن ننشد:

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامعُ

هرقل كان على دِيانة النصرانية، وهو ذو عِلم وحِكمة وبصيرة، وهذا ما سيتَّضح في الحوار المكثَّف بينه وبين أبي سفيان، يقول أبو سفيان: ثُمَّ كَانَ أَوَّلَ مَا سَأَلَنِي عَنْهُ أن قَالَ: كَيْفَ نَسَبُهُ فِيكُمْ؟ قُلْتُ: هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ. قَالَ: فَهَلْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ مِنْكُمْ أحَدٌ قَطُّ قَبْلَهُ؟ قُلْتُ: لاَ. قَالَ: فَهَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ؟ قُلْتُ: لاَ. قَالَ: فَأشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟ فَقُلْتُ: بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ. قَالَ: أيَزِيدُونَ أمْ يَنْقُصُونَ؟ قُلْتُ: بَلْ يَزِيدُونَ. قَالَ: فَهَلْ يَرْتَدُّ أحَدٌ مِنْهُمْ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ قُلْتُ: لاَ. قَالَ: فَهَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ قُلْتُ: لاَ. قَالَ: فَهَلْ يَغْدِرُ؟ قُلْتُ: لاَ، وَنَحْنُ مِنْهُ فِي مُدَّةٍ فلاَ نَدْرِي مَا هُوَ فَاعِلٌ فِيهَا. قَالَ أبو سفيان: وَلَمْ تُمْكِنِّي كَلِمَةٌ أُدْخِلُ فِيهَا شَيْئًا غَيْر هَذِهِ الْكَلِمَةِ. (يقصد أنه كان يريد أن يدخل النقيصة على النبي لكن يريد أن يدخلها بالصدق، فقال هذه الكلمة، يقصد أننا في مدة من السلم مع محمد وما ندري ما سيفعل بها؛ هل يغدر أو لا) قَالَ: فَهَلْ قَاتَلْتُمُوهُ؟ قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: فَكَيْفَ كَانَ قِتَالُكُمْ إِيَّاهُ؟ قُلْتُ: الْحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ سِجَالٌ، يَنَالُ مِنَّا وَنَنَالُ مِنْهُ. قَالَ: مَاذَا يأْمُرُكُمْ؟ قُلْتُ: يَقُولُ اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ، وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَاتْرُكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلاَةِ وَالصِّدْقِ وَالْعَفَافِ وَالصِّلَةِ.

والملاحَظ أنَّ أسئلة هرقل كانت دقيقةً للغاية، فقد سأل عن نسَب الرسول، ومَن أعلَم بالأنساب مثل أبي سفيان؟! فأخبره أبو سفيان أنه ذو نسَب عظيم، وهو نسَب يمتدُّ إلى إسماعيل بن إبراهيم -عليهما السلام-، وأنه على الرغم من ذلك، فليس مِن آباء الرسول ولا أجداده مِن مَلِكٍ، وأنَّ مَن يؤمن بدعوته هم الضعفاء من الناس، ومَن آمن به لا يتراجع عن إيمانه، وهم في ازدياد على الرغم من الحرب السِّجال بين الكفار والمسلمين. ثم شهد أبو سفيان أن دعوة الرسول تُنادي بتوحيد الله، ثم بالصلاة وحُسن الخُلق والعفَّة في القول والسلوك.

أبو سفيان قدَّم هنا صُورة شاملة عن الرسول - -، وهي صورةٌ صادقة، توضِّح أنَّهُ وعلى الرغم من شركه، كان يَعلم جيِّدًا طبيعة رسالة محمد، وما يدعو إليه مِن مكارم الأخلاق، وصدْقه وأمانته، وأنَّ الحرب السِّجال التي كانت بين كفار مكَّة والنبيِّ في المدينة هي حرب على غير أساس عقلي أو أخلاقي أو ديني، فقد سلَّم زعيم قريش بعِظَم رسالة محمد، وعِظَم نَسَبه، وأنَّ دعوته

في ازدياد، وأنَّ مَن يؤمن بالإسلام لا يتخلّى عنه مهما حدَث له، وهذا يعني ثبات موقف الرسول الحركي، وثبات أتْباعه، وتكاثُرَهم، وأنَّ دعوته تغزو القلوبَ بيُسر، فإذا غزَت القلوبَ لا تُغادرها، وعلى الرغم من أن الإسلام يُنادي أن يتْرك الناسُ دِيانة آبائهم، وهي الشِّرْك والكفر بالله تعالى، فإنَّ الإسلام يأمر بالصِّلة -على حدِّ قول أبي سفيان- أي: صِلة الرَّحم، وهذا دليل على أن القضية ليست مُقاطعة الآباء، وإنما اتِّخاذ موقف مِن العقائد التي كانوا يؤمنون بها، وهو موقف يُريد الصلاح للناس، وليس قطيعة الرحم.

فَقَالَ (هرقل) لِلتَّرْجُمَانِ: قُلْ لَهُ سَألْتُكَ عَنْ نَسَبِهِ، فَذَكَرْتَ أَنَّهُ فِيكُمْ ذُو نَسَبٍ، فَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي نَسَبِ قَوْمِهَا، وَسَأَلْتُكَ هَلْ قَالَ أَحَدٌ مِنْكُمْ هَذَا الْقَوْلَ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ: لا، فَقُلْتُ: لَوْ كَانَ أَحَدٌ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ قَبْلَهُ لَقُلْتُ رَجُلًا يَأْتَسِي بِقَوْلٍ قِيلَ قَبْلَهُ، وَسَأَلْتُكَ هَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ: لا، قُلْتُ: فَلَوْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ قُلْتُ رَجُلًا يَطْلُبُ مُلْكَ أَبِيهِ، وَسَأَلْتُكَ هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ: لا، فَقَدْ أَعْرِفُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَذَرَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ، وَسَأَلْتُكَ أَشْرَافُ النَّاسِ اتَّبَعُوهُ، أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟ فَذَكَرْتَ: أَنَّ ضُعَفَاءَهُمُ اتَّبَعُوهُ، وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ، وَسَأَلْتُكَ أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ ذَكَرْتَ: أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ، وَكَذَلِكَ أَمْرُ الإيمَانِ حَتَّى يَتِمَّ، وَسَأَلْتُكَ أَيَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ: لا، وَكَذَلِكَ الإيمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بَشَاشَتُهُ الْقُلُوبَ، وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَغْدِرُ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ: لا، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لاَ تَغْدِرُ، وَسَأَلْتُكَ بِمَا يَأْمُرُكُمْ؟ فَذَكَرْتَ: أَنَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ، وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَيَنْهَاكُمْ عَنْ عِبَادَةِ الأوْثَانِ، وَيَأْمُرُكُمْ بِالصَّلاَةِ وَالصِّدْقِ وَالْعَفَافِ. فَإِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ، وَقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ، لَمْ أكُنْ أَظُنُّ أَنَّهُ مِنْكُمْ، فَلَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنِّي أَخْلُصُ إِلَيْهِ لَتَجَشَّمْتُ لِقَاءَهُ، وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ عَنْ قَدَمِهِ.

هنا علَّل هرقل في تعقيبه على كلام أبي سفيان، بتعليل جمع بُعدين: البُعد العقلي، والبُعد الدِّيني الذي استقاه مِن كُتُب أهل الكتاب السابقين، ثم قدَّم بشارةً.

أما البُعد العقلي: - فإنَّ الرسول لم يكُن كذَّابًا، واشتُهر بالصِّدق، وهذا ما يجعله ذا مصداقية عالية عند الناس، وفي نفس الأمْر، فإنَّ الصادق عاقل ذو

إيمان، فلا يكذب على الله، ويَصْدُق الناس.

- لم يحْدث أنْ قام أحدُ أبناء مكة أو قريش بادِّعاء النبوَّة، حتى يقلِّده الرسول محمد فيما يقول، فهو أول مَن دعا بالنبوة في قومه.

- ليس لآباءِ محمد - - مُلك أو سلطان، حتى لا يظنَّ أنه أراد أن يُطالِب بمُلْك آبائه، فاتخذَ النبوَّة وسيلة لذلك.

أما البُعد الدِّيني وهو مُستَقًى مِن اطِّلاع هرقل على الكُتب السماوية السابقة فيبدو في تأكيده على: - أنَّ كل رسول مبعوث في قومه فهو ذو نسَب طيِّب، معروف الأصل، وتلك حكمة عظيمة، حتى لا يكُون دخيلًا أو مدَّعيًا يطلب الشهرة والصيت من دعواه.

- أن الرسول محمد يتبعه ضعفاء الناس، وهذه سُنَّة الأنبياء في الأرض، يؤمن بهم الضعفاء وأراذل الناس.

- أن مَن يؤمن لا يرتدُّ بعد إيمانه، ذلك أن للإيمان حلاوة لا يَعرفها إلا مَن ذاقها، وولجَتْ قلبَه، فلا يرتدُّ عنها.

- أن مِن أخلاق الرسول الأمانة وحفظ العهْد، فلا يَعرف الغدْر والخيانة، وهي من أخلاق الرُّسل، أما أخلاق الملوك وطلَّاب السُّلطة والمنصب فتحكُمهم اعتباراتُ المصلحة والسياسة، لا الأخلاق والهداية.

- أن ما يدعو إليه الرسول - - هي دَعاوَى الرُّسل والأنبياء جميعًا، فهُم مِن مشكاة واحدة، يَعرفها مَن قرأ الدِّيانات السماوية، وطالَع كُتُبَها، فالتوحيد والأخلاق الحسَنة وصِلَة الرَّحم لم يختلف عليها أحد مِن المبعوثين مِن عند الله.

وكانت البشارة التي قدَّمها هرقل: - أن محمدًا سيمتدُّ مُلكه حتى موطنِ قدميه هاتين، وهو ما تحقَّق بالفعل، سواء كان يَقصد بقدميه أرضَ إيلياء (بيت المقدس) بفلسطين، أو يقصد مُلْكَه هو، وهذا ما تمَّ، حيث سيطر المسلمون على مُعظم بلدان دولة الروم في الشام وشمال إفريقية، ثم فتحوا عاصمة مُلكهم الكُبرَى مدينة القسطنطينيَّة على يد محمد الفاتح.

ثُمَّ دَعَا بِكِتَابِ رَسُولِ اللَّهِ - - الَّذِي بَعَثَ بِهِ دِحْيَة اِلَى عَظِيمِ بُصْرَى، فَدَفَعَهُ إلَى هِرَقْلَ فَقَرَأَهُ فَإِذَا فِيهِ: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ

وَرَسُولِهِ، إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ. سَلاَمٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَّا بَعْدُ، فإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلاَمِ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ، يُؤْتِكَ اللَّهُ أجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الأَرِيسِيِّينَ وَ قُ يٰٓأَ لَ كِتَٰبِ تَعَالَ ا۟ إِلَىٰ كَلِمَ سَوَآ بَ نَنَا وَبَ نَكُ أَلَّا نَ بُدَ إِلَّا للَّهَ وَلَا نُ رِكَ بِهِ شَ ا وَلَا يَتَّخِذَ بَ ضُنَا بَ ضًا أَ بَابًۭا مِّن دُونِ للَّ فَإِن تَوَلَّ ا۟ فَقُولُوا۟ هَدُوا۟ بِأَنَّا مُ لِمُونَ ٦٤ [سورة آل عِمران].

قَالَ أبو سفيان: فَلَمَّا قَالَ مَا قَالَ، وَفَرَغَ مِنْ قِرَاءَةِ الْكِتَابِ، كَثُرَ عِنْدَهُ الصَّخَبُ، وَارْتَفَعَتِ الأَصْوَاتُ وَأُخْرِجْنَا، فَقُلْتُ لأَصْحَابِي حِينَ أُخْرِجْنَا: لَقَدْ أَمِرَ أَمْرُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ، إِنَّهُ يَخَافُهُ مَلِكُ بَنِي الأَصْفَرِ. فَمَا زِلْتُ مُوقِنًا أَنَّهُ سَيَظْهَرُ حَتَّى أَدْخَلَ اللَّهُ عَلَيَّ الإِسْلاَمَ. وكان إسلامه في فتح مكة.

«ابن أبي كبشة» هذا اللقب كان الكفار يلقبون النبي به، واختُلف في هذ اللقب من أين مصدره، قالوا إنه لقب أحد أجداده من أمه، ويقال إنه لقب زوج مرضعته حليمة السعدية -رضي الله عنها- وقيل غير ذلك، وأَمِرَ أمرُه، أي عَظُم أمره.

ثمَّ إن هرقل قدِم حِمص، فنزل في دسكرة له، والدسكرة هي القصر الذي تحيط به بيوت الخدم، ثم أذِن لعظماء الروم أن يدخلوا عليه، فأوصدَ الأبواب عليهم، ثمَّ أشرف عليهم فقال: يا معشر الروم، هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم فنتابع هذا النبي؟ قال: فحاصوا حيصة حُمُر الوحش إلى الأبواب، كلهم صدُّوا ونفروا وراحوا جهة الباب يبغون الخروج معبرين عن رفضهم لهذا الأمر، لما رأى هرقل ذلك منهم ويئس من إيمانهم، قال: ردوهم عليَّ. فلما رُدُّوا عليه قال: إني قلت لكم مقالتي آنفًا أختبر بها شدتكم على دينكم فقد رأيت. فسجدوا له ورضوا عنه، وكان ذلك آخر شأن هرقل.

في الجانب الآخر عند المسلمين، أنه لما ذهب النبي إلى تبوك تخلَّف عنه ثلاثة أصناف من الناس؛ أهل الأعذار الذين عذرهم الله، وهم الذين يذكرهم الله في قوله وَجَآءَ مُعَذِّرُونَ مِنَ أَ رَابِ لِيُ ذَنَ لَهُ وَقَعَدَ لَّذِينَ كَذَبُوا۟ للَّهَ وَرَسُولَهُۥ سَيُصِيبُ لَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِ هُ عَذَابٌ أَلِي ٩٠ لَّ سَ عَلَى لضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى مَ ضَىٰ وَلَا عَلَى لَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى مُ سِنِينَ

مِن سَبِي وَ للّهُ غَفُو رَّحِي ٩١ وَلَا عَلَى لّذِينَ إِذَا مَآ أَتَ كَ
لِتَ مِلَهُ قُ تَ لَآ أَجِدُ مَآ أَ مِلُكُ عَلَ هِ تَوَلَّواْ وَّأَ يُنُهُ
تَفِيضُ مِنَ لدَّ عِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ٩٢ [سورة التوبة]. وتخلَّف عنه صنفٌ آخر وهو صنف المنافقين الذين ذكرنا آياتهم من قبل، وتخلَّف عنه صِنفٌ ثالث لا عذر لهم، وهم ثلاثة من صالح أصحاب الرسول - -، من غير ذوي الأعذار المذكورين في الآية، ولم يكونوا من المنافقين، وهم: كعب بن مالك، مرارة بن الربيع وهلال بن أمية، وهؤلاء غلب عليهم التسويف والميل إلى الراحة حتى انفرط الغزو وفاتهم الخروج مع النبي -عليه الصلاة والسلام-، وفي هذا يقول كعب: لَمْ أَتَخَلَّفْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - - فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا إِلَّا فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ، غَيْرَ أَنِّي كُنْتُ تَخَلَّفْتُ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ وَلَمْ يُعَاتِبْ أَحَدًا تَخَلَّفَ عَنْهَا إِنَّمَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ - - يُرِيدُ عِيرَ قُرَيْشٍ حَتَّى جَمَعَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّهِمْ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ، وَلَقَدْ شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ - - لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ حِينَ تَوَاثَقْنَا عَلَى الْإِسْلَامِ وَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهَا مَشْهَدَ بَدْرٍ وَإِنْ كَانَتْ بَدْرٌ أَذْكَرَ فِي النَّاسِ مِنْهَا كَانَ مِنْ خَبَرِي أَنِّي لَمْ أَكُنْ قَطُّ أَقْوَى وَلَا أَيْسَرَ حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْهُ فِي تِلْكَ الْغَزَاةِ وَاللَّهِ مَا اجْتَمَعَتْ عِنْدِي قَبْلَهُ رَاحِلَتَانِ قَطُّ حَتَّى جَمَعْتُهُمَا فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ، وَلَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ - - يُرِيدُ غَزْوَةً إِلَّا وَرَّى بِغَيْرِهَا حَتَّى كَانَتْ تِلْكَ الْغَزْوَةُ غَزَاهَا رَسُولُ اللَّهِ - - فِي حَرٍّ شَدِيدٍ وَاسْتَقْبَلَ سَفَرًا بَعِيدًا وَمَفَازًا وَعَدُوًّا كَثِيرًا فَجَلَّى لِلْمُسْلِمِينَ أَمْرَهُمْ لِيَتَأَهَّبُوا أُهْبَةَ غَزْوِهِمْ فَأَخْبَرَهُمْ بِوَجْهِهِ الَّذِي يُرِيدُ وَالْمُسْلِمُونَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ - - كَثِيرٌ وَلَا يَجْمَعُهُمْ كِتَابٌ حَافِظٌ، قَالَ كَعْبٌ: فَمَا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَتَغَيَّبَ إِلَّا ظَنَّ أَنْ سَيَخْفَى لَهُ مَا لَمْ يَنْزِلْ فِيهِ وَحْيُ اللَّهِ، وَغَزَا رَسُولُ اللَّهِ - - تِلْكَ الْغَزْوَةَ حِينَ طَابَتْ الثِّمَارُ وَالظِّلَالُ وَتَجَهَّزَ رَسُولُ اللَّهِ - - وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ فَطَفِقْتُ أَغْدُو لِكَيْ أَتَجَهَّزَ مَعَهُمْ فَأَرْجِعُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا فَأَقُولُ فِي نَفْسِي أَنَا قَادِرٌ عَلَيْهِ فَلَمْ يَزَلْ يَتَمَادَى بِي حَتَّى اشْتَدَّ بِالنَّاسِ الْجِدُّ فَأَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ - - وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جَهَازِي شَيْئًا، فَقُلْتُ أَتَجَهَّزُ بَعْدَهُ بِيَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ ثُمَّ أَلْحَقُهُمْ، فَغَدَوْتُ بَعْدَ أَنْ فَصَلُوا لِأَتَجَهَّزَ فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا، ثُمَّ غَدَوْتُ ثُمَّ رَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا، فَلَمْ يَزَلْ بِي حَتَّى أَسْرَعُوا وَتَفَارَطَ الْغَزْوُ وَهَمَمْتُ أَنْ أَرْتَحِلَ فَأُدْرِكَهُمْ وَلَيْتَنِي فَعَلْتُ، فَلَمْ يُقَدَّرْ لِي ذَلِكَ، فَكُنْتُ إِذَا خَرَجْتُ فِي النَّاسِ بَعْدَ خُرُوجِ رَسُولِ اللَّهِ - -

فَطُفْتُ فِيهِمْ أَحْزَنَنِي أَنِّي لَا أَرَى إِلَّا رَجُلًا مَغْمُوصًا عَلَيْهِ النِّفَاقُ أَوْ رَجُلًا مِمَّنْ عَذَرَ اللَّهُ مِنْ الضُّعَفَاءِ، وَلَمْ يَذْكُرْنِي رَسُولُ اللَّهِ - - حَتَّى بَلَغَ تَبُوكَ، فَقَالَ وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْقَوْمِ بِتَبُوكَ: مَا فَعَلَ كَعْبٌ؟ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، حَبَسَهُ بُرْدَاهُ وَنَظَرُهُ فِي عِطْفِهِ. فَقَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ: بِئْسَ مَا قُلْتَ وَاللَّهِ، يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا. فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ - - قَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ: فَلَمَّا بَلَغَنِي أَنَّهُ تَوَجَّهَ قَافِلًا حَضَرَنِي هَمِّي وَطَفِقْتُ أَتَذَكَّرُ الْكَذِبَ وَأَقُولُ بِمَاذَا أَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ غَدًا، وَاسْتَعَنْتُ عَلَى ذَلِكَ بِكُلِّ ذِي رَأْيٍ مِنْ أَهْلِي، فَلَمَّا قِيلَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ - - قَدْ أَظَلَّ قَادِمًا، زَاحَ عَنِّي الْبَاطِلُ وَعَرَفْتُ أَنِّي لَنْ أَخْرُجَ مِنْهُ أَبَدًا بِشَيْءٍ فِيهِ كَذِبٌ، فَأَجْمَعْتُ صِدْقَهُ. وَأَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ - - قَادِمًا، وَكَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ فَيَرْكَعُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ جَلَسَ لِلنَّاسِ، فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ جَاءَهُ الْمُخَلَّفُونَ فَطَفِقُوا يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ وَيَحْلِفُونَ لَهُ وَكَانُوا بِضْعَةً وَثَمَانِينَ رَجُلًا، فَقَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ - - عَلَانِيَتَهُمْ وَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ وَوَكَلَ سَرَائِرَهُمْ إِلَى اللَّهِ، فَجِئْتُهُ فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَيْهِ تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ الْمُغْضَبِ ثُمَّ قَالَ: تَعَالَ. فَجِئْتُ أَمْشِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَقَالَ لِي: مَا خَلَّفَكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ قَدْ ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ؟ فَقُلْتُ: بَلَى إِنِّي وَاللَّهِ لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا لَرَأَيْتُ أَنْ سَأَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ بِعُذْرٍ، وَلَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلًا وَلَكِنِّي وَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَى بِهِ عَنِّي لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يُسْخِطَكَ عَلَيَّ، وَلَئِنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صِدْقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ إِنِّي لَأَرْجُو فِيهِ عَفْوَ اللَّهِ، لَا وَاللَّهِ مَا كَانَ لِي مِنْ عُذْرٍ، وَاللَّهِ مَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى وَلَا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - -: أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ، فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِيكَ. فَقُمْتُ وَثَارَ رِجَالٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ فَاتَّبَعُونِي فَقَالُوا لِي: وَاللَّهِ مَا عَلِمْنَاكَ كُنْتَ أَذْنَبْتَ ذَنْبًا قَبْلَ هَذَا، وَلَقَدْ عَجَزْتَ أَلا تَكُونَ اعْتَذَرْتَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - - بِمَا اعْتَذَرَ إِلَيْهِ الْمُتَخَلِّفُونَ، قَدْ كَانَ كَافِيَكَ ذَنْبَكَ اسْتِغْفَارُ رَسُولِ اللَّهِ - - لَكَ، فَوَاللَّهِ مَا زَالُوا يُؤَنِّبُونِي حَتَّى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ فَأُكَذِّبَ نَفْسِي، ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ هَلْ لَقِيَ هَذَا مَعِي أَحَدٌ؟ قَالُوا: نَعَمْ، رَجُلَانِ قَالَا مِثْلَ مَا قُلْتَ، فَقِيلَ لَهُمَا مِثْلُ مَا قِيلَ لَكَ، فَقُلْتُ مَنْ هُمَا؟ قَالُوا مُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ الْعَمْرِيُّ وَهِلَالُ بْنُ أُمَيَّةَ الْوَاقِفِيُّ. فَذَكَرُوا لِي رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ قَدْ شَهِدَا بَدْرًا فِيهِمَا أُسْوَةٌ فَمَضَيْتُ حِينَ ذَكَرُوهُمَا لِي، وَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ - - الْمُسْلِمِينَ عَنْ كَلَامِنَا أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ مِنْ بَيْنِ

مَنْ تَخَلّفَ عَنْهُ، فَاجْتَنَبَنَا النَّاسُ وَتَغَيَّرُوا لَنَا حَتَّى تَنَكّرَتْ فِي نَفْسِي الْأَرْضُ فَمَا هِيَ الَّتِي أَعْرِفُ، فَلَبِثْنَا عَلَى ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً، فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكَانَا وَقَعَدَا فِي بُيُوتِهِمَا يَبْكِيَانِ، وَأَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَشَبَّ الْقَوْمِ وَأَجْلَدَهُمْ، فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَشْهَدُ الصَّلَاةَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ وَأَطُوفُ فِي الْأَسْوَاقِ وَلَا يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ، وَآتِي رَسُولَ اللَّهِ - - فَأُسَلِّمُ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَأَقُولُ فِي نَفْسِي هَلْ حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ السَّلَامِ عَلَيَّ أَمْ لَا؟ ثُمَّ أُصَلِّي قَرِيبًا مِنْهُ فَأُسَارِقُهُ النَّظَرَ، فَإِذَا أَقْبَلْتُ عَلَى صَلَاتِي أَقْبَلَ إِلَيَّ، وَإِذَا الْتَفَتُّ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي، حَتَّى إِذَا طَالَ عَلَيَّ ذَلِكَ مِنْ جَفْوَةِ النَّاسِ مَشَيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أَبِي قَتَادَةَ وَهُوَ ابْنُ عَمِّي وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَوَاللَّهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا قَتَادَةَ، أَنْشُدُكَ بِاللَّهِ هَلْ تَعْلَمُنِي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ؟ فَسَكَتَ، فَعُدْتُ لَهُ فَنَشَدْتُهُ فَسَكَتَ، فَعُدْتُ لَهُ فَنَشَدْتُهُ فَقَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. فَفَاضَتْ عَيْنَايَ وَتَوَلَّيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ الْجِدَارَ. قَالَ: فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي بِسُوقِ الْمَدِينَةِ إِذَا نَبَطِيٌّ مِنْ أَنْبَاطِ أَهْلِ الشَّأْمِ مِمَّنْ قَدِمَ بِالطَّعَامِ يَبِيعُهُ بِالْمَدِينَةِ يَقُولُ: مَنْ يَدُلُّ عَلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ؟ فَطَفِقَ النَّاسُ يُشِيرُونَ لَهُ، حَتَّى إِذَا جَاءَنِي دَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا مِنْ مَلِكِ غَسَّانَ، فَإِذَا فِيهِ «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللَّهُ بِدَارِ هَوَانٍ وَلَا مَضْيَعَةٍ، فَالْحَقْ بِنَا نُوَاسِكَ»، فَقُلْتُ لَمَّا قَرَأْتُهَا: وَهَذَا أَيْضًا مِنْ الْبَلَاءِ. فَتَيَمَّمْتُ بِهَا التَّنُّورَ فَسَجَرْتُهُ بِهَا حَتَّى إِذَا مَضَتْ أَرْبَعُونَ لَيْلَةً مِنْ الْخَمْسِينَ إِذَا رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ - - يَأْتِينِي، فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ - - يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْتَزِلَ امْرَأَتَكَ. فَقُلْتُ: أُطَلِّقُهَا أَمْ مَاذَا أَفْعَلُ؟ قَالَ: لَا، بَل اعْتَزِلْهَا وَلَا تَقْرَبْهَا. وَأَرْسَلَ إِلَى صَاحِبَيَّ مِثْلَ ذَلِكَ، فَقُلْتُ لِامْرَأَتِي: الْحَقِي بِأَهْلِكِ فَتَكُونِي عِنْدَهُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِي هَذَا الْأَمْرِ. قَالَ كَعْبٌ: فَجَاءَت امْرَأَةُ هِلَال بْنِ أُمَيَّة رَسُولَ اللَّهِ - - فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ هِلَالَ بْنَ أُمَيَّة شَيْخٌ ضَائِعٌ لَيْسَ لَهُ خَادِمٌ، فَهَلْ تَكْرَهُ أَنْ أَخْدُمَهُ؟ قَالَ: لَا، وَلَكِنْ لَا يَقْرَبْكِ. قَالَتْ: إِنَّهُ وَاللَّهِ مَا بِهِ حَرَكَةٌ إِلَى شَيْءٍ، وَاللَّهِ مَا زَالَ يَبْكِي مُنْذُ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ إِلَى يَوْمِهِ هَذَا.

فَقَالَ لِي بَعْضُ أَهْلِي: لَوْ اسْتَأْذَنْتَ رَسُولَ اللَّهِ - - فِي امْرَأَتِكَ كَمَا أَذِنَ لِامْرَأَةِ هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ أَنْ تَخْدُمَهُ. فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَا أَسْتَأْذِنُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ - - وَمَا يُدْرِينِي مَا يَقُولُ رَسُولُ اللَّه - - إِذَا اسْتَأْذَنْتُهُ فِيهَا وَأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ. فَلَبِثْتُ بَعْدَ ذَلِكَ عَشْرَ لَيَالٍ حَتَّى كَمَلَتْ لَنَا خَمْسُونَ لَيْلَةً مِنْ حِينَ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ - -

عَنْ كَلَامِنَا، فَلَمَّا صَلّيْتُ صَلَاةَ الْفَجْرِ صُبْحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً وَأنَا عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِنَا، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الْحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي وَضَاقَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ أَوْفَى عَلَى جَبَلِ سَلْعٍ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا كَعْبُ بْنَ مَالِكٍ، أَبْشِرْ. قَالَ: فَخَرَرْتُ سَاجِدًا وَعَرَفْتُ أَنْ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ وَآذَنَ رَسُولُ اللَّهِ - - بِتَوْبَةِ اللَّهِ عَلَيْنَا حِينَ صَلَّى صَلَاةَ الْفَجْرِ، فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا وَذَهَبَ قِبَلَ صَاحِبَيَّ مُبَشِّرينَ، وَرَكَضَ إِلَيَّ رَجُلٌ فَرَسًا، وَسَعَى سَاعٍ مِنْ أَسْلَمَ فَأَوْفَى عَلَى الْجَبَلِ، وَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنْ الْفَرَسِ، فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي نَزَعْتُ لَهُ ثَوْبَيَّ فَكَسَوْتُهُ إِيَّاهُمَا بِبُشْرَاهُ، وَاللَّهِ مَا أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا يَوْمَئِذٍ، وَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبِسْتُهُمَا وَانْطَلَقْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - - فَيَتَلَقَّانِي النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا يُهَنُّونِي بِالتَّوْبَةِ، يَقُولُونَ: لِتَهْنِكَ تَوْبَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ. قَالَ كَعْبٌ: حَتَّى دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ - - جَالِسٌ حَوْلَهُ النَّاسُ، فَقَامَ إِلَيَّ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ يُهَرْوِلُ حَتَّى صَافَحَنِي وَهَنَّانِي، وَاللَّهِ مَا قَامَ إِلَيَّ رَجُلٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ غَيْرَهُ وَلَا أَنْسَاهَا لِطَلْحَةَ. قَالَ كَعْبٌ: فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ - - قَالَ وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنْ السُّرُورِ: أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ. قَالَ: قُلْتُ: أَمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ؟ قَالَ: لَا، بَلْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ. وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ - - إِذَا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ حَتَّى كَأَنَّهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ، وَكُنَّا نَعْرِفُ ذَلِكَ مِنْهُ، فَلَمَّا جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِ اللَّهِ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - -: أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ. قُلْتُ: فَإِنِّي أُمْسِكُ سَهْمِي الَّذِي بِخَيْبَرَ. يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ إِنَّمَا نَجَّانِي بِالصِّدْقِ، وَإِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَلَا أُحَدِّثَ إِلَّا صِدْقًا مَا بَقِيتُ.

فَوَاللَّهِ مَا أَعْلَمُ أَحَدًا مِن الْمُسْلِمِينَ أَبْلَاهُ اللَّهُ فِي صِدْقِ الْحَدِيثِ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ - - أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلَانِي مَا تَعَمَّدْتُ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِي هَذَا كَذِبًا، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِي اللَّهُ فِيمَا بَقِيتُ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ - - لَّقَد تَّابَ للَّهُ عَلَى لنَّبِيِّ وَ مُهَٰجِرِينَ وَ ل أَنصَارِ... إِلَى قَوْلِهِ وَكُونُواْ مَعَ لصَّدِقِينَ [سورة التوبة] فَوَاللَّهِ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ نِعْمَةٍ قَطُّ بَعْدَ أَنْ هَدَانِي لِلْإِسْلَامِ أَعْظَمَ فِي نَفْسِي مِنْ صِدْقِي لِرَسُولِ اللَّهِ - - أَلَا أَكُونَ كَذَبْتُهُ

فَأهْلِكَ كَمَا هَلَكَ الّذِينَ كَذَبُوا، فَإِنَّ اللّهَ قَالَ لِلّذِينَ كَذَبُوا حِينَ أنْزَلَ الْوَحْيَ شَرَّ مَا قَالَ لِأَحَدٍ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: سَيَ لِفُونَ بِ للَّهِ لَكُ إِذَا نقَلَ ـتُ ... إِلَى قَوْلِهِ فَإِنَّ للَّهَ لَا يَ ضَىٰ عَنِ قَ مِ فٰسِقِينَ [سورة التوبة]. قَالَ كَعْبٌ: وَكُنَّا تَخَلَّفْنَا أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ عَنْ أَمْرِ أُولَئِكَ الَّذِينَ قَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ - - حِينَ حَلَفُوا لَهُ فَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ وَأَرْجَأَ رَسُولُ اللَّهِ أَمْرَنَا حَتَّى قَضَى اللَّهُ فِيهِ، فَبِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ وَعَلَى لثَّلٰثَةِ لَّذِينَ خُلِّفُواْ [سورة التوبة]، وَلَيْسَ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ مِمَّا خُلِّفْنَا عَنْ الْغَزْوِ، إِنَّمَا هُوَ تَخْلِيفُهُ إِيَّانَا وَإِرْجَاؤُهُ أَمْرَنَا عَمَّنْ حَلَفَ لَهُ وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ فَقَبِلَ مِنْهُ.

سلمان الفارسي

الباحثُ عن الحقيقة

«سلمانُ منَّا آل البيت»

محمد - -هو رجل قوي، طويل الساقين، كثير الشعر، قيل عنه: إنه كان لبيبًّا حازمًا، من عقلاء الرجال وعُبَّادهم ونبلائهم.

روى عنه الكثيرون، منهم عبد الله بن عباس، وأنس بن مالك، وأبو الطفيل، وأبو عثمان النهدي، وشرحبيل بن السمط، وسلمة بن معاوية الكندي، والنخعي، وأبو عمر زاذان حصين بن جندب الجنبي، وقرثع الضبي، وعقبة بن عامر الجهني، وأبو سعيد الخدري.

وروت عنه السيدة العالمة الفقيهة هجيمة، وقيل الأوصابية الحميرية الدمشقية أم الدرداء الصغرى، وهي من كبار العلماء، التي روت علمًا جمًّا عن زوجها أبي الدرداء، وعن سلمان، وكعب بن عاصم الأشعري، وعائشة، وأبي هريرة، وطائفة، وعرضت القرآن وهي صغيرة على أبي الدرداء، وطال عمرها واشتهرت بالعلم والعمل والزهد. وبلغت في العِلم مبلغًا، حتى إن معاوية بن أبي سفيان خطبها، فأبت أن تتزوجه.

يحكي سلمانُ عن نفسه فيقول:

كُنْتُ رَجُلا فَارِسِيًّا مِنْ أَهْلِ أَصْبَهَانَ، مِنْ أَهْلِ قَرْيَةٍ مِنْهَا يُقَالُ لَهَا جَيٌّ، وَكَانَ أَبِي دِهْقَانَ قَرْيَتِهِ (أي رئيسها)، وَكُنْتُ أَحَبَّ خَلْقِ اللَّهِ إِلَيْهِ، فَلَمْ يَزَلْ بِهِ حُبُّهُ إِيَّايَ حَتَّى حَبَسَنِي فِي بَيْتِهِ، (أَيْ مُلازِمَ النَّارِ)، كَمَا تُحْبَسُ الْجَارِيَةُ، وَأَجْهَدْتُ فِي الْمَجُوسِيَّةِ حَتَّى كُنْتُ قَطَنَ النَّارِ (أي خادمها) الَّذِي يُوقِدُهَا لا يَتْرُكُهَا تَخْبُو سَاعَةً، قَالَ وَكَانَتْ لأَبِي ضَيْعَةٌ (بستان) عَظِيمَةٌ، قَالَ فَشُغِلَ فِي بُنْيَانٍ لَهُ يَوْمًا فَقَالَ لِي: يَا بُنَيَّ، إِنِّي قَدْ شُغِلْتُ فِي بُنْيَانٍ هَذَا الْيَوْمَ عَنْ ضَيْعَتِي، فَاذْهَبْ فَاطَّلِعْهَا، وَأَمَرَنِي فِيهَا بِبَعْضِ مَا يُرِيدُ، فَخَرَجْتُ أُرِيدُ ضَيْعَتَهُ، فَمَرَرْتُ بِكَنِيسَةٍ مِنْ كَنَائِسِ النَّصَارَى، فَسَمِعْتُ أَصْوَاتَهُمْ فِيهَا وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَكُنْتُ لا أَدْرِي مَا أَمْرُ النَّاسِ لِحَبْسِ أَبِي إِيَّايَ فِي بَيْتِهِ، فَلَمَّا مَرَرْتُ بِهِمْ وَسَمِعْتُ أَصْوَاتَهُمْ دَخَلْتُ عَلَيْهِمْ أَنْظُرُ مَا يَصْنَعُونَ، قَالَ: فَلَمَّا رَأَيْتُهُمْ أَعْجَبَنِي صَلَاتُهُمْ وَرَغِبْتُ فِي أَمْرِهِمْ، وَقُلْتُ هَذَا وَاللَّهِ خَيْرٌ مِنْ الدِّينِ الَّذِي نَحْنُ عَلَيْهِ، فَوَاللَّهِ مَا تَرَكْتُهُمْ حَتَّى غَرَبَت الشَّمْسُ، وَتَرَكْتُ ضَيْعَةَ أَبِي وَلَمْ آتِهَا، فَقُلْتُ لَهُمْ: أَيْنَ أَصْلُ هَذَا الدِّين؟ قَالُوا: بِالشَّامِ. قَالَ: ثُمَّ رَجَعْتُ إِلَى أَبِي وَقَدْ بَعَثَ فِي طَلَبِي وَشَغَلْتُهُ عَنْ عَمَلِهِ كُلِّهِ، قَالَ فَلَمَّا جِئْتُهُ قَالَ: أَيْ بُنَيَّ، أَيْنَ كُنْتَ؟ أَلَمْ أَكُنْ عَهِدْتُ إِلَيْكَ مَا عَهِدْتُ؟ قَالَ قُلْتُ: يَا أَبَتِ! مَرَرْتُ بِنَاسٍ يُصَلُّونَ فِي كَنِيسَةٍ لَهُمْ، فَأَعْجَبَنِي مَا رَأَيْتُ مِنْ دِينِهِمْ، فَوَاللَّهِ مَا زِلْتُ عِنْدَهُمْ حَتَّى غَرَبَت الشَّمْس. قَالَ: أَيْ بُنَيَّ، لَيْسَ فِي ذَلِكَ الدِّينِ خَيْرٌ، دِينُكَ وَدِينُ آبَائِكَ خَيْرٌ مِنْهُ، قَالَ قُلْتُ: كَلا وَاللَّهِ إِنَّهُ خَيْرٌ مِنْ

دِينِنَا. قَالَ: فَخَافَنِي، فَجَعَلَ فِي رِجْلَيَّ قَيْدًا، ثُمَّ حَبَسَنِي فِي بَيْتِهِ، قَالَ وَبَعثَتُ إِلَى النَّصَارَى فَقُلْتُ لَهُمْ: إِذَا قَدِمَ عَلَيْكُمْ رَكْبٌ مِنْ الشَّامِ تُجَّارٌ مِنْ النَّصَارَى فَأَخْبِرُونِي بِهِمْ. قَالَ: فَقَدِمَ عَلَيْهِمْ رَكْبٌ مِنْ الشَّامِ تُجَّارٌ مِنْ النَّصَارَى، قَالَ فَأَخْبَرُونِي بِهِمْ، قَالَ فَقُلْتُ لَهُمْ: إِذَا قَضَوْا حَوَائِجَهُمْ وَأَرَادُوا الرَّجْعَةَ إِلَى بِلادِهِمْ فَآذِنُونِي بِهِمْ، قَالَ فَلَمَّا أَرَادُوا الرَّجْعَةَ إِلَى بِلَادِهِمْ أَخْبَرُونِي بِهِمْ، فَأَلْقَيْتُ الْحَدِيدَ مِنْ رِجْلَيَّ ثُمَّ خَرَجْتُ مَعَهُمْ حَتَّى قَدِمْتُ الشَّامَ، فَلَمَّا قَدِمْتُهَا قُلْتُ: مَنْ أَفْضَلُ أَهْلِ هَذَا الدِّينِ؟ قَالُوا: الأَسْقُف فِي الْكَنِيسَةِ. قَالَ فَجِئْتُهُ فَقُلْتُ: إِنِّي قَدْ رَغِبْتُ فِي هَذَا الدِّينِ، وَأَحْبَبْتُ أَنْ أَكُونَ مَعَكَ أَخْدُمُكَ فِي كَنِيسَتِكَ وَأَتَعَلَّمُ مِنْكَ وَأُصَلِّي مَعَكَ. قَالَ: فَادْخُلْ. فَدَخَلْتُ مَعَهُ، قَالَ فَكَانَ رَجُلَ سَوْءٍ، يَأْمُرُهُمْ بِالصَّدَقَةِ وَيُرَغِّبُهُمْ فِيهَا فَإِذَا جَمَعُوا إِلَيْهِ مِنْهَا أَشْيَاءَ اكْتَنَزَها لِنَفْسِهِ وَلَمْ يُعْطِهَا الْمَسَاكِينَ، حَتَّى جَمَعَ سَبْعَ قِلالٍ مِنْ ذَهَبٍ وَوَرِقٍ، قَالَ وَأَبْغَضْتُهُ بُغْضًا شَدِيدًا لِمَا رَأَيْتُهُ يَصْنَعُ، ثُمَّ مَاتَ فَاجْتَمَعَتْ إِلَيْهِ النَّصَارَى لِيَدْفِنُوهُ، فَقُلْتُ لَهُمْ: إِنَّ هَذَا كَانَ رَجُلَ سَوْءٍ، يَأْمُرُكُمْ بِالصَّدَقَةِ وَيُرَغِّبُكُمْ فِيهَا فَإِذَا جِئْتُمُوهُ بِهَا اكْتَنَزَهَا لِنَفْسِهِ وَلَمْ يُعْطِ الْمَسَاكِينَ مِنْهَا شَيْئًا. قَالُوا: وَمَا عِلْمُكَ بِذَلِكَ؟ قَالَ قُلْتُ: أَنَا أَدُلُّكُمْ عَلَى كَنْزِهِ. قَالُوا: فَدُلَّنَا عَلَيْهِ. قَالَ فَأَرَيْتُهُمْ مَوْضِعَهُ، قَالَ فَاسْتَخْرَجُوا مِنْهُ سَبْعَ قِلَالٍ مَمْلُوءَةٍ ذَهَبًا وَوَرِقًا، قَالَ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا: وَاللَّهِ لا نَدْفِنُهُ أَبَدًا. فَصَلَبُوهُ ثُمَّ رَجَمُوهُ بِالْحِجَارَةِ، ثُمَّ جَاؤوا بِرَجُلٍ آخَرَ فَجَعَلُوهُ بِمَكَانِهِ، قَالَ يَقُولُ سَلْمَانُ: فَمَا رَأَيْتُ رَجُلًا لا يُصَلِّي الْخَمْسَ أَرَى أَنَّهُ أَفْضَلُ مِنْهُ أَزْهَدُ فِي الدُّنْيَا وَلا أَرْغَبُ فِي الآخِرَةِ وَلا أَدْأَبُ لَيْلًا وَنَهَارًا مِنْهُ. قَالَ فَأَحْبَبْتُهُ حُبًّا لَمْ أُحِبُّهُ مَنْ قَبْلَهُ، وَأَقَمْتُ مَعَهُ زَمَانًا، ثُمَّ حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ فَقُلْتُ لَهُ: يَا فُلَانُ، إِنِّي كُنْتُ مَعَكَ، وَأَحْبَبْتُكَ حُبًّا لَمْ أُحِبُّهُ مَنْ قَبْلَكَ، وَقَدْ حَضَرَكَ مَا تَرَى مِنْ أَمْرِ اللَّهِ، فَإِلَى مَنْ تُوصِي بِي؟ وَمَا تَأْمُرُنِي؟ قَالَ: أَيْ بُنَيَّ، وَاللَّهِ مَا أَعْلَمُ أَحَدًا الْيَوْمَ عَلَى مَا كُنْتُ عَلَيْهِ، لَقَدْ هَلَكَ النَّاسُ وَبَدَّلُوا وَتَرَكُوا أَكْثَرَ مَا كَانُوا عَلَيْهِ إِلا رَجُلًا بِالْمَوْصِلِ وَهُوَ فُلانٌ، فَهُوَ عَلَى مَا كُنْتُ عَلَيْهِ، فَالْحَقْ بِهِ. قَالَ فَلَمَّا مَاتَ وَغَيَّبَ لَحِقْتُ بِصَاحِبِ الْمَوْصِلِ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا فُلانُ، إِنَّ فُلانًا أَوْصَانِي عِنْدَ مَوْتِهِ أَنْ أَلْحَقَ بِكَ، وَأَخْبَرَنِي أَنَّكَ عَلَى أَمْرِهِ. قَالَ فَقَالَ لِي: أَقِمْ عِنْدِي. فَأَقَمْتُ عِنْدَهُ، فَوَجَدْتُهُ خَيْرَ رَجُلٍ عَلَى أَمْرِ صَاحِبِهِ، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ مَاتَ، فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ قُلْتُ لَهُ: يَا فُلانُ، إِنَّ فُلَانًا أَوْصَى بِي إِلَيْكَ وَأَمَرَنِي بِاللُّحُوقِ بِكَ، وَقَدْ حَضَرَكَ مِن اللَّهِ مَا تَرَى، فَإِلَى مَنْ تُوصِي بِي؟

وَمَا تَأمُرُنِي؟ قَالَ: أيْ بُنَيَّ، وَاللّهِ مَا أَعْلَمُ رَجُلًا عَلَى مِثْلِ مَا كُنَّا عَلَيْهِ إلا بِنِصِّيبِينَ، وَهُوَ فُلَانٌ، فَالْحَقْ بِهِ. وَقَالَ فَلَمَّا مَاتَ وَغَيَّبَ لَحِقْتُ بِصَاحِبِ نِصِّيبِينَ، فَجِئْتُهُ، فَأَخْبَرْتُهُ بِخَبَرِي وَمَا أَمَرَنِي بِهِ صَاحِبِي، قَالَ: فَأَقِمْ عِنْدِي. فَأَقَمْتُ عِنْدَهُ، فَوَجَدْتُهُ عَلَى أَمْرِ صَاحِبَيْهِ، فَأَقَمْتُ مَعَ خَيْرِ رَجُلٍ، فَوَاللَّهِ مَا لَبِثَ أَنْ نَزَلَ بِهِ الْمَوْتُ، فَلَمَّا حَضَرَ قُلْتُ لَهُ: يَا فُلَانُ، إنَّ فُلانًا كَانَ أَوْصَى بِي إِلَى فُلانٍ، ثُمَّ أَوْصَى بِي فُلَانٌ إِلَيْكَ، فَإِلَى مَنْ تُوصِي بِي وَمَا تَأْمُرُنِي؟ قَالَ: أَيْ بُنَيَّ، وَاللَّهِ مَا نَعْلَمُ أَحَدًا بَقِيَ عَلَى أَمْرِنَا آمُرُكَ أَنْ تَأْتِيَهُ إلا رَجُلًا بِعَمُّورِيَّةَ، فَإِنَّهُ بِمِثْلِ مَا نَحْنُ عَلَيْهِ، فَإِنْ أَحْبَبْتَ فَائْتِه، قَالَ: فَإِنَّهُ عَلَى أَمْرِنَا، قَالَ فَلَمَّا مَاتَ وَغَيَّبَ لَحِقْتُ بِصَاحِبِ عَمُّورِيَّةَ وَأَخْبَرْتُهُ خَبَرِي، فَقَالَ: أَقِمْ عِنْدِي. فَأَقَمْتُ مَعَ رَجُلٍ عَلَى هَدْيِ أَصْحَابِهِ وَأَمْرِهِمْ، قَالَ وَاكْتَسَبْتُ حَتَّى كَانَ لِي بَقَرَاتٌ وَغُنَيْمَةٌ، قَالَ ثُمَّ نَزَلَ بِهِ أَمْرُ اللَّهِ، فَلَمَّا حَضَرَ قُلْتُ لَهُ: يَا فُلانُ، إِنِّي كُنْتُ مَعَ فُلانٍ، فَأَوْصَى بِي فُلانٌ إِلَى فُلانٍ، وَأَوْصَى بِي فُلانٌ إِلَى فُلانٍ، ثُمَّ أَوْصَى بِي فُلَانٌ إِلَيْكَ، فَإِلَى مَنْ تُوصِي بِي وَمَا تَأْمُرُنِي؟ قَالَ: أَيْ بُنَيَّ، وَاللَّهِ مَا أَعْلَمُهُ أَصْبَحَ عَلَى مَا كُنَّا عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنْ النَّاسِ آمُرُكَ أَنْ تَأْتِيَهُ، وَلَكِنَّهُ قَدْ أَظَلَّكَ زَمَانُ نَبِيٍّ، هُوَ مَبْعُوثٌ بِدِينِ إِبْرَاهِيمَ، يَخْرُجُ بِأَرْضِ الْعَرَبِ مُهَاجِرًا إِلَى أَرْضٍ بَيْنَ حَرَّتَيْنِ (الحرة: الأرض ذات الحجارة السوداء)، بَيْنَهُمَا نَخْلٌ، بِهِ عَلامَاتٌ لا تَخْفَى، يَأْكُلُ الْهَدِيَّةَ وَلا يَأْكُلُ الصَّدَقَةَ، بَيْنَ كَتِفَيْهِ خَاتَمُ النُّبُوَّةِ، فَإِنْ استطَعْتَ أَنْ تَلْحَقَ بِتِلْكَ الْبِلادِ فَافْعَلْ. قَالَ ثُمَّ مَاتَ وَغَيَّبَ، فَمَكَثْتُ بِعَمُّورِيَّةَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ أَمْكُثَ، ثُمَّ مَرَّ بِي نَفَرٌ مِنْ كَلْبٍ تُجَّارًا، فَقُلْتُ لَهُمْ: تَحْمِلُونِي إِلَى أَرْضِ الْعَرَبِ وَأُعْطِيكُمْ بَقَرَاتِي هَذِهِ وَغُنَيْمَتِي هَذِهِ؟ قَالُوا: نَعَمْ. فَأَعْطَيْتُهُمُوهَا وَحَمَلُونِي، حَتَّى إِذَا قَدِمُوا بِي وَادِي الْقُرَى ظَلَمُونِي فَبَاعُونِي مِنْ رَجُلٍ مِنْ يَهُود عَبْدًا، فَكُنْتُ عِنْدَهُ، وَرَأَيْتُ النَّخْلَ، وَرَجَوْتُ أَنْ تَكُونَ الْبَلَدَ الَّذِي وَصَفَ لِي صَاحِبِي، وَلَمْ يَحِقْ لِي فِي نَفْسِي، فَبَيْنَمَا أَنَا عِنْدَهُ قَدِمَ عَلَيْهِ ابْنُ عَمٍّ لَهُ مِنْ الْمَدِينَةِ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ، فَابْتَاعَنِي مِنْهُ، فَاحْتَمَلَنِي إِلَى الْمَدِينَةِ، فَوَاللَّهِ مَا هُوَ إلا أَنْ رَأَيْتُهَا فَعَرَفْتُهَا بِصِفَةِ صَاحِبِي، فَأَقَمْتُ بِهَا، وَبَعَثَ اللَّهُ رَسُولَهُ فَأَقَامَ بِمَكَّةَ مَا أَقَامَ، لا أَسْمَعُ لَهُ بِذِكْرٍ مَعَ مَا أَنَا فِيهِ مِنْ شُغْلِ الرِّقِّ، ثُمَّ هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَوَاللَّهِ إِنِّي لَفِي رَأْسِ عَذْقٍ لِسَيِّدِي أَعْمَلُ فِيهِ بَعْضَ الْعَمَلِ وَسَيِّدِي جَالِسٌ إِذْ أَقْبَلَ ابْنُ عَمٍّ لَهُ حَتَّى وَقَفَ عَلَيْهِ، فَقَالَ فُلانُ: قَاتَلَ اللَّهُ بَنِي قَيْلَةَ، وَاللَّهِ إِنَّهُمْ الآنَ لَمُجْتَمِعُونَ بِقُبَاءَ عَلَى رَجُلٍ قَدِمَ عَلَيْهِمْ مِنْ

مَكّةَ الْيَوْمَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ نَبِيٌّ، قَالَ فَلَمَّا سَمِعْتُهَا أَخَذَتْنِي الْعُرَوَاءُ (برد الحمى) حَتَّى ظَنَنْتُ سَأَسْقُطُ عَلَى سَيِّدِي، قَالَ: وَنَزَلْتُ عَنْ النَّخْلَةِ فَجَعَلْتُ أَقُولُ لابْنِ عَمِّهِ ذَلِكَ: مَاذَا تَقُولُ مَاذَا تَقُولُ؟ قَالَ فَغَضِبَ سَيِّدِي فَلَكَمَنِي لَكْمَةً شَدِيدَةً ثُمَّ قَالَ: مَا لَكَ وَلِهَذَا؟! أَقْبِلْ عَلَى عَمَلِكَ. قَالَ قُلْتُ: لا شَيْءَ، إِنَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أَسْتَثْبِتَ عَمَّا قَالَ. وَقَدْ كَانَ عِنْدِي شَيْءٌ قَدْ جَمَعْتُهُ، فَلَمَّا أَمْسَيْتُ أَخَذْتُهُ ثُمَّ ذَهَبْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - - وَهُوَ بِقُبَاءَ، فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّكَ رَجُلٌ صَالِحٌ وَمَعَكَ أَصْحَابٌ لَكَ غُرَبَاءُ ذَوُو حَاجَةٍ، وَهَذَا شَيْءٌ كَانَ عِنْدِي لِلصَّدَقَةِ، فَرَأَيْتُكُمْ أَحَقَّ بِهِ مِنْ غَيْرِكُمْ، قَالَ فَقَرَّبْتُهُ إِلَيْهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّه - - لِأَصْحَابِهِ: كُلُوا. وَأَمْسَكَ يَدَهُ فَلَمْ يَأْكُلْ، قَالَ فَقُلْتُ فِي نَفْسِي هَذِهِ وَاحِدَةٌ، ثُمَّ انْصَرَفْتُ عَنْهُ فَجَمَعْتُ شَيْئًا، وَتَحَوَّلَ رَسُولُ اللَّهِ - - إِلَى الْمَدِينَةِ، ثُمَّ جِئْتُ بِهِ، فَقُلْتُ إِنِّي رَأَيْتُكَ لا تَأْكُلُ الصَّدَقَةَ وَهَذِهِ هَدِيَّةٌ أَكْرَمْتُكَ بِهَا، قَالَ فَأَكَلَ رَسُولُ اللَّهِ - - مِنْهَا، وَأَمَرَ أَصْحَابَهُ فَأَكَلُوا مَعَهُ، قَالَ فَقُلْتُ فِي نَفْسِي هَاتَانِ اثْنَتَانِ، ثُمَّ جِئْتُ رَسُولَ اللَّه وَهُوَ بِبَقِيعِ الْغَرْقَدِ، قَالَ: وَقَدْ تَبِعَ جَنَازَةً مِنْ أَصْحَابِهِ عَلَيْهِ شَمْلَتَانِ لَهُ، وَهُوَ جَالِسٌ فِي أَصْحَابِهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ثُمَّ اسْتَدَرْتُ أَنْظُرُ إِلَى ظَهْرِهِ هَلْ أَرَى الْخَاتَمَ الَّذِي وَصَفَ لِي صَاحِبِي، فَلَمَّا رَآنِي رَسُولُ اللَّهِ - - اسْتَدَرْتُهُ عَرَفَ أَنِّي أَسْتَثْبِتُ فِي شَيْءٍ وُصِفَ لِي، قَالَ فَأَلْقَى رِدَاءَهُ عَنْ ظَهْرِهِ، فَنَظَرْتُ إِلَى الْخَاتَمِ فَعَرَفْتُهُ فَانْكَبَبْتُ عَلَيْهِ أُقَبِّلُهُ وَأَبْكِي، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ - -: تَحَوَّلْ. فَتَحَوَّلْتُ فَقَصَصْتُ عَلَيْهِ حَدِيثِي كَمَا حَدَّثْتُكَ يَا بنَ عَبَّاسٍ، قَالَ فَأَعْجَبَ رَسُولَ اللَّهِ - - أَنْ يَسْمَعَ ذَلِكَ أَصْحَابُهُ، ثُمَّ شَغَلَ سَلْمَانَ الرِّقُّ حَتَّى فَاتَهُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ - - بَدْرٌ وَأُحُدٌ، قَالَ ثُمَّ قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ - -: كَاتِبْ يَا سَلْمَانُ. فَكَاتَبْتُ صَاحِبِي عَلَى ثَلاثِ مِائَةِ نَخْلَةٍ أُحْيِيهَا لَهُ بِالْفَقِيرِ (حفرة الفسيلة التي تغرس فيها) وَبِأَرْبَعِينَ أُوقِيَّةً، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - - لأَصْحَابِهِ: أَعِينُوا أَخَاكُمْ. فَأَعَانُونِي بِالنَّخْلِ، الرَّجُلُ بِثَلاثِينَ وَدِيَّةً (أي صغار النخل)، وَالرَّجُلُ بِعِشْرِينَ، وَالرَّجُلُ بِخَمْسَ عَشْرَةَ، وَالرَّجُلُ بِعَشْرٍ، يَعْنِي الرَّجُلُ بِقَدْرِ مَا عِنْدَهُ، حَتَّى اجْتَمَعَتْ لِي ثَلاثُ مِائَةِ وَدِيَّةٍ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ - -: اذْهَبْ يَا سَلْمَانُ فَفَقِّرْ لَهَا (أي احفر لها موضع غرسها)، فَإِذَا فَرَغْتَ فَائْتِنِي أَكُونُ أَنَا أَضَعُهَا بِيَدَيَّ، فَفَقَّرْتُ لَهَا وَأَعَانَنِي أَصْحَابِي حَتَّى إِذَا فَرَغْتُ مِنْهَا جِئْتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ - - مَعِي إِلَيْهَا: فَجَعَلْنَا نُقَرِّبُ لَهُ الْوَدِيَّ، وَيَضَعُهُ رَسُولُ اللَّهِ - -

بِيَدِهِ، فَوَالّذِي نَفْسُ سَلْمَانَ بِيَدِهِ مَا مَاتَتْ مِنْهَا وَدِيَّةٌ وَاحِدَةٌ، فَأَدَّيْتُ النَّخْلَ وَبَقِيَ عَلَيَّ الْمَالُ، فَأُتِيَ رَسُولُ اللَّهِ - - بِمِثْلِ بَيْضَةِ الدَّجَاجَةِ مِنْ ذَهَبٍ، مِنْ بَعْضِ الْمَغَازِي، فَقَالَ: مَا فَعَلَ الْفَارِسِيُّ الْمُكَاتَبُ؟ قَالَ فَدُعِيتُ لَهُ فَقَالَ: خُذْ هَذِهِ فَأَدِّ بِهَا مَا عَلَيْكَ يَا سَلْمَانُ. فَقُلْتُ: وَأَيْنَ تَقَعُ هَذِهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِمَّا عَلَيَّ؟ قَالَ: خُذْهَا فَإِنَّ اللَّهَ سَيُؤَدِّي بِهَا عَنْكَ. قَالَ فَأَخَذْتُهَا فَوَزَنْتُ لَهُمْ مِنْهَا، وَالَّذِي نَفْسُ سَلْمَانَ بِيَدِهِ أَرْبَعِينَ أُوقِيَّةً، فَأَوْفَيْتُهُمْ حَقَّهُمْ، وَعُتِقْتُ، فَشَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ - - الْخَنْدَقَ، ثُمَّ لَمْ يَفُتْنِي مَعَهُ مَشْهَدٌ.

وهو الذي أشار بحفر الخندق يوم غزوة الخندق، إذ قال للنبي -عليه الصلاة والسلام-: «يا رسول الله، إنا إذا كنا بأرض فارس وتخوَّفْنا الخيل، خندقنا علينا، فهل لك يا رسول الله أن تخندق؟»، فأَعجب رأيُ سلمان المسلمين، وقال المهاجرون حينها: «سلمان منا»، وقالت الأنصار: «سلمان منا»، فقال الرسولُ -عليه الصلاة والسلام-: «سلمان منا أهل البيت».

أعلى النبي -عليه الصلاة والسلام- من منزلة سلمان الفارسي، فقد روى أنس بن مالك عن النبي محمد قوله: «الجنة تشتاق إلى ثلاثة: علي وعمار وسلمان»، كما روى أنس قول النبي: «أنا سابق ولد آدم، وسلمان سابق الفُرس».

كما أن سلمان كان سببًا في نزول آية: إِنَّ لَّذِينَ ءَامَنُواْ وَ لَّذِينَ هَادُواْ وَ لنَّصَٰرَىٰ وَ لصَّٰبِـِٔينَ مَ ءَامَنَ بِ للَّهِ وَ يَ مِ أَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُمۡ أَ رُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَ فٌ عَلَ هِمۡ وَلَا هُمۡ يَ زَنُونَ ٦٢ [سورة البقرة، آية 62]، وذلك حين أخبر سلمان النبي -عليه الصلاة والسلام- خبر أصحابه من القسيسين الذين صحبهم قبل إسلامه، فقال: «كانوا يصومون ويصلون، ويشهدون أنك ستُبعث». فقال النبي محمد: «يا سلمان، هم من أهل النار»، فاشتد ذلك على سلمان. وقال: «لو أدركوك صدقوك واتبعوك»، فنزلت الآية.

كما كان الصحابة يُعظِّمون قدره، فقد رُوي أنه لما حضر معاذ بن جبل الموت، قال له أصحابه: «أوصنا»، قال: «إن الإيمان والعلم مكانهما، من ابتغاهما وجدهما. (قالها ثلاثًا)، فالتمسوا العلم عند أربعة: أبي الدرداء وسلمان

وابن مسعود وعبد الله بن سلام الذي كان يهوديًّا فأسلم، فإني سمعت رسول الله يقول: إنه عاشر عشرة في الجنة».

وحين سُئل علي بن أبي طالب عن أصحاب النبي محمد، فوصل سؤالهم عن سلمان فقال عنه علي: «أدرك العلم الأول، والعلم الآخر، بحر لا يدرك قعره، وهو منا أهل البيت».

كما أنه حين قدم سلمان على عمر بن الخطاب وهو الخليفة، قال عمر للناس: «اخرجوا بنا نتلقَّ سلمان».

توفي سلمان في خلافة عثمان بن عفان بالمدائن سنة 33 هـ، وقيل توفي سنة 36 هـ، وكانت لسلمان زوجة من قبيلة كندة اسمها بُقيرة، وقيل إنه كان له بنت بأصبهان لها نسل وبنتان بمصر.

نُعَيمُ بن مسعود

«الحربُ خُدعة»

محمد - -

لما وقع إجلاء بني النضير من أماكنهم، سارَ جمع من كبرائهم، منهم سيدهم حيي بن أخطب أبو صفية أم المؤمنين -رضي الله عنها- ، وعظيمهم سلام بن مشكم، ورئيسهم كنانة بن أبي الحقيق، وهوذة بن قيس، وأبو عامر الفاسق، إلى أن قدموا مكة على قريش يدعونهم ويحرِّضونهم على حرب رسول الله، وقالوا: إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله. فقال أبو سفيان: مرحبًا وأهلًا. وأحب الناس إلينا من أعاننا على عداوة محمد.

وفي رواية: أنَّ أبا سفيان قال لهم: لكن لا نأمنكم إلا إن سجدتم لآلهتنا حتى نطمئن إليكم. ففعلوا.

فقالت قريش لأولئك اليهود: يا معشر يهود، إنكم أهل الكتاب الأول والعلم، أخبرونا عما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد، أفديننا خير أم دين محمد؟ قالوا: بل دينكم خير من دينه، وأنتم أولى بالحق منه. وفي رواية: نحن أهدى سبيلًا أم محمد؟ فقالوا: أنتم أهدى سبيلًا، أي لأنكم تعظمون هذا البيت، وتقومون على السقاية، وتنحرون البدن، وتعبدون ما كان يعبد آباؤكم، أي فأنتم أولى بالحق منه. فأنزل الله -تعالى- فيهم أَلَ تَرَ إِلَى لَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ كِتَٰبِ يُ مِنُونَ بِ جِ تِ وَ لطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَ دَىٰ مِنَ لَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ٥١ [سورة النساء، آية: 51]، فلما قالوا ذلك لقريش سرَّهم ونشَّطهم لمَّا دعوهم إليه من حرب رسول الله.

وعند ذلك خرج من بطون قريش خمسون رجلًا وتحالفوا، وقد ألصقوا أكبادهم بالكعبة متعلقين بأستارها، ألا يخذل بعضهم بعضًا، ويكونون كلهم يدًا واحدة على محمد ما بقي منهم رجل، وقد أشار إلى ذلك صاحب الهمزيَّة بأبيات ذمَّ فيها اليهود لعنهم الله بأمور بقوله:

لا تكذب أن اليهود وقد زا	**غوا عن الحق معشر لؤماء**
جحدوا المصطفى وآمن بالطا	**غوت قوم هم عندهم شرفاء**
قتلوا الأنبياء واتخذوا العجـ	**ـل ألا إنهم هم السفهاء**
وسفيه من ساءه المن والسلـ	**ـوى وأرضاه الفوم والقثاء**

ملئت بالخبيث منهم بطون	**فهي نار طباقها الأمعاء**
لو أريدوا في حال سبت بخير	**كان سبتًا لديهم الأربعاء**
هو يوم مبارك قيل للتصر	**يف فيه من اليهود اعتداء**
فبظلم منهم وكفر عدتهم	**طيبات في تركهن ابتلاء**

ثم جاء أولئك إلى غطفان ودعوهم وحرضوهم على حرب رسول الله، وقالوا لهم: إنا سنكون معكم، وإن قريشًا قد بايعوهم على ذلك، وجعلوا لهم تمر خيبر سنة إن هم نصروهم عليه. فتجهزت قريش وأتباعها من القبائل، وغطفان وأتباعها، وقائد قريش أبو سفيان بن حرب وكانوا أربعة آلاف، ومعهم ثلاثمائة فرس وألف وخمسمائة بعير، وعُقِد اللواء في دار الندوة.

قاد قبيلة غطفان عيينة بن حصن الفزاري في بني فزارة وهم ألف، الذي أسلمَ بعد ذلك، ثم ارتد بعد إسلامه وأُخذ أسيرًا في زمن خلافة الصديق -رضي الله عنه-، ثم أسلم مرةً أخرى.

وقائد بني مرة، وهم أربعمائة فارس، هو الحارث بن عوف المري، وأسلم بعد ذلك.

وقائد بني أشجع أبو مسعود بن رخيلة، وقد أسلم بعد ذلك.

وقائد بني سليم، وهم سبعمائة، سفيان بن عبد شمس، ولا يُعلَمُ إسلامه.

وقائد بني أسد طليحة بن خويلد الأسدي، وأسلم بعد ذلك.

وكانت قبيلتا أشجع وبنو أسد تتمة العشرة آلاف.

وقد قال بعض العلماء: كانت الأحزاب عشرة آلاف، وهم ثلاثة عساكر، ومدبِّر أمرها أبو سفيان ولم يكُ مسلمًا آنذاك.

ولما تهيأت قريش للخروج أتى ركب من خزاعة في أربع ليالٍ حتى أخبروا رسول الله، فلما سمع رسول الله - - بما أجمعوا عليه ندب الناس (أي دعاهم)، وأخبرهم خبر عدوهم، وشاورهم في أمرهم، وقال لهم: هل نبرز من المدينة أم نكون فيها؟ فأشير عليه بالخندق، وقد أشار عليه بذلك سلمان

الفارسي -رضي الله عنه-. فقال: يا رسول الله، إنا كنا بأرض فارس إذا تخوفنا الخيل خندقنا علينا، فإن ذلك كان من مكايد الفرس.

وعند ذلك ركب رسول الله فرسًا له ومعه عدة من المهاجرين والأنصار، فارتاد موضعًا ينزل له، وجعل جبل سلع خلف ظهره، وأمرهم بالجد ووعدهم بالنصر إن هم صبروا. فعمل فيه رسول الله - - مع المسلمين، وحمل التراب على ظهره الشريف، ودأب المسلمون يبادرون قدوم العدو. قال: واستعاروا من بني قريظة آلة كثيرة من مساحي وكرارين ومكاتل للعمل في الخندق، وهو يعدهم -عليه الصلاة والسلام- بملك فارس والروم واليمن.

عند ذلك قال جمع من المنافقين، منهم معتب بن قشير: ألا تعجبون من محمد يمنيكم ويعدكم الباطل، ويخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى، وأنها تُفتح لكم، وأنتم إنما تحفرون الخندق من الفرق (أي الخوف)، لا تستطيعون أن تبرزوا. فأنزل الله تعالى قُلِ للَّهُمَّ مَٰلِكَ
مُ لكِ تُ تِي مُ لكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ مُ لكَ مِمَّن تَشَآءُ
وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآ بِيَدِكَ خَ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ
شَ قَدِي ٢٦ [سورة آل عمران، آية: 26].

وقيل في سبب نزولها إنه لما فتح النبي مكة وعد أمته مُلك فارس والروم، فقال المنافقون واليهود: هيهات هيهات، من أين لمحمد ملك فارس والروم؟ وهم أعزُّ وأمنع من ذلك.

واستخلف النبي -عليه الصلاة والسلام- على المدينة ابن أم مكتوم -رضي الله عنه-، وأرسل سليطًا وسفيان بن عوف طليعة ليجسُّوا خبرَ الأحزاب فقتلوهما، فأُتِيَ بهما رسول الله فدفنهما في قبر واحد، فهما الشهيدان القرينان. وأعطى لواء المهاجرين لزيد بن حارثة ولواء الأنصار لسعد بن عبادة، وبعث مسلمة بن أسلم في مائتي رجل، وزيد بن حارثة في ثلاثمائة رجل يحرسون المدينة، ويظهرون التكبير تخوفًا على الذراري من بني قريظة، لمَّا بلغه أنهم نقضوا ما بينه وبينهم من العهد، وأنهم يريدون الإغارة على المدينة، لأن حيي بن أخطب أرسل إلى قريش أن يأتيه منهم ألف رجل، وإلى غطفان أن يأتيه منهم ألف رجل آخر ليغيروا على المدينة، وجاء الخبر بذلك

إلى رسول الله، فعظم البلاء، وصار الخوف على الذراري أشدَّ من الخوف على أهل الخندق.

وطالت ليالي الحصار، حتى قاربت العشرين يومًا، فلجأ الرسول -صلوات الله وسلامه عليه- إلى ربه، وجعل يدعوه دعاء المضطر، ويكرر في دعائه قوله: «اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك».

وفي تلك الليالي، كان نعيم بن مسعود يتقلب على فراشه أرقًا، ويسرح بفكره ويطيل التأمل، وفجأة وبَّخَ نفسهُ: ويحكَ يا نعيم! ما الذي جاء بك لحرب هذا الرجل؟ لا تحاربه انتصارًا لحق مسلوب أو حمية لعرض مغصوب، وإنما لسبب غير معروف، ولا يليق برجل له عقل مثل عقلك أن يقاتل فيقتُل أو يُقتَل دون سبب!

ولم ينتهِ عتابُ نعيمٍ لنفسهِ حتى وثبَ وسارَ إلى وجهةٍ جديدة، تسلَّل من قومهِ حتى وجدَ نفسهُ بينَ يدي رسول الله - - بين المغرب والعشاء فوجده يصلي، فلما رآه جلس.

فقال لهُ النبيُّ: نعيم بن مسعود؟

قال: نعم يا رسول الله.

قال: وما الذي جاء بك في هذه الساعة؟

قال: جئت لأشهد أن لا إله إلا الله، وأنك عبد الله ورسوله، وأن ما جئت به حق. ثم قال: يا رسول الله، إني أسلمت، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي، فمرني بما شئت.

فقال رسول الله: إنما أنت رجل واحد فخذل عنا ما استطعت، فإن الحرب خدعة.

فقال له نعيم: يا رسول الله، إني أقول. (يقصد أنِّي ربما أقول شيئًا لم يحدث حتى أخدعهم).

فقال لهُ النبيُّ: قل ما بدا لك فأنت في حل.

فخرج نعيم -رضي الله عنه- حتى أتى بني قريظة، وكان لهم نديمًا. قال: فلما رأوني رحبوا بي وعرضوا علي الطعام والشراب. فقلت: إني لم آتِ لشيء من هذا، إنما جئتكم تخوفًا عليكم لأشير عليكم برأي، يا بني قريظة، قد

عرفتم ودي إياكم وخاصة ما بيني وبينكم. قالوا: صدقت، لست عندنا بمتهم. فقال لهم: اكتموا عني. قالوا: نفعل. قال: لقد رأيتم ما وقع لبني قينقاع ولبني النضير من إجلائهم وأخذ أموالهم، وإن قريشًا وغطفان ليسوا كأنتم، البلد بلدكم، وبها أموالكم ونساؤكم وأبناؤكم، لا تقدرون على أن ترحلوا منه إلى غيره، وإن قريشًا وغطفان قد جاؤوا لحرب محمد وأصحابه وقد ظاهرتموهم (أي عاونتموهم عليه)، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره فليسوا كأنتم، فإن رأوا نهزة (أي فرصة) أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين بلدكم، والرجل ببلدكم ولا طاقة لكم به إن خلا بكم، فلا تقاتلوا معهم حتى تأخذوا منهم رهنًا من أشرافهم، أي سبعين رجلًا يكونون بأيديكم ثقة لكم، على أن يقاتلوا معكم محمدًا حتى يناجزوه (أي يقاتلوه). قالوا له: لقد أشرت بالرأي والنصح. ودعوا له وشكروا، وقالوا: نحن فاعلون. قال: ولكن اكتموا عني. قالوا: نفعل.

ثم خرج رضي الله عنه حتى أتى قريشًا، فقال لأبي سفيان ومن معه من أشراف قريش: قد عرفتم ودي لكم وفراقي لمحمد، وإنه قد بلغني أمر قد رأيت أن أبلغكموه نصحًا لكم فاكتموا. قالوا: نفعل. قال: تعلمون أن معشر يهود (يعني بني قريظة) قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد (أي من نقض عهده)، وقد أرسلوا إليه -وأنا عندهم- أنَّا قد ندمنا على ما فعلنا، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين، قريش وغطفان، رجالًا من أشرافهم، سبعين رجلًا، فنعطيكهم فتضرب أعناقهم؟ وترد جناحنا الذي كسرت إلى ديارهم (يعنون بني النضير)، ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم؟ فأرسل إليهم نعم، فإن بعثت إليكم يهودًا يطلبون منكم رهنًا من رجالكم فلا تدفعوا إليهم رجلًا واحدًا، واحذروهم على أسراركم، ولكن اكتموا عني ولا تذكروا من هذا حرفًا. قالوا: لا نذكر.

ثم خرج رضي الله عنه حتى أتى غطفان. فقال: يا معشر غطفان، إنكم أهلي وعشيرتي وأحب الناس إليَّ ولا أراكم تتهمونني. قالوا: صدقت، ما أنت عندنا بمتهم. قال: فاكتموا عليَّ. قالوا نعم. فقال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم.

فلما كان ليلة السبت، أرسل أبو سفيان رؤوس غطفان إلى بني قريظة عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان. فقالوا لهم: إنا لسنا بدار مقام، وقد هلك الخف والحافر، فاغدوا للقتال حتى نناجز (أي نقاتل محمدًا ونفرغ مما بيننا وبينه). فأرسلوا إليهم: إن اليوم الذي يلي هذه الليلة يوم السبت، وقد علمتم ما نال منا من تعدى في السبت، ومع ذلك فلا نقاتل معكم حتى تعطونا رهنًا، سبعين رجلًا. فقالوا: صدق والله نعيم.

وفي رواية أن بني قريظة أرسلت لقريش قبل مجيء رسل قريش إليهم رسولًا يقول لهم: ما هذا التواني، والرأي أن تتواعدوا على يوم يكونون معكم فيه لكنهم لا يخرجون حتى ترسلوا إليهم رهنًا سبعين رجلًا من أشرافكم، فإنهم يخافون إن أصابكم ما تكرهون رجعتم وتركتموهم. فلم ترد لهم قريش جوابًا، وجاءهم نعيم وقال لهم: كنت عند أبي سفيان، وقد جاءه رسولكم، فقال لو طلبوا مني عناقًا ما دفعتها لهم. وجاء حيي بن أخطب لبني قريظة فلم يجد منهم موافقة له وقالوا: لا نقاتل معهم حتى يدفعوا إلينا سبعين رجلًا من قريش وغطفان رهنًا عندنا.

فاختلفت كلمتهم ونجحَ نعيمٌ -رضي الله عنه- في تمزيق صفوفهم وتشتيت رأيهم واجتماعهم، وبعث الله -تعالى- ريحًا عاصفًا، وهي ريح الصبا في ليالٍ شديدة البرد، فنقلت بيوتهم، وقطعت أطنابها، وكفأت قدورهم على أفواهها، وصارت الريح تلقي الرجال على أمتعتهم، ودفنت الرجال وأطفأت نيرانهم. وأرسل الله إليهم الملائكة زلزلتهم. قال تعالى: فَأَ سَ نَا عَلَ هِم رِيحًا وَجُنُودًا لَّم تَرَ هَ [سورة الأحزاب، آية: 9]، ولم تقاتل الملائكة، بل نفثت في روعهم الرعب.

وقال عليهِ الصلاة والسلام: «نُصِرْتُ بالصبا، وأُهلِكَتْ عاد بالدبور»، وفي لفظ «نصر الله المسلمين بالريح، وكانت ريحًا صفراء ملأت عيونهم ودامت عليهم».

ظلَّ نعيم بن مسعود بعد ذلك اليوم موضع ثقة رسول الله - -، فنهض للنبيِّ بالأعباء، وحمل بين يديه الرايات، حتى جاء يومُ فتحِ مكة، في ذلك اليوم وقف أبو سفيان بن حرب يستعرض جيوش المسلمين، فرأى رجلًا يحمل راية غطفان، فقال لمن معه: من هذا؟

فقالوا: نعيم بن مسعود.

فقال: بئس ما صنع بنا يوم الخندق، والله لقد كان من أشد الناس عداوةً لمحمد، وها هو ذا يحمل راية قومه بين يديه، ويمضي لحربنا تحت لوائه!

فرضي اللهُ عن نعيم بن مسعود، وعن سائر الصحابة الكرام.

عمرو بن الجموح

«شيخٌ عزم على أن يطأ بعرجته الجنة»

- رسول الله -

إنهُ زعيم من زعماء المدينة في الجاهلية، وسيد بني سلمة، وأجودُ أهل المدينة، ومن أصحاب المروءات المعروفين.

كانَ شريفًا في المدينةِ مقدِّمًا فيها، ومن شأن الأشراف في الجاهلية أن يتخذ كل واحد منهم صنمًا لنفسه في بيته، ليتبرَّك به ليلَ نهار، ويذبح له في المواسم، ويدعو عندهُ في المصائب ووقت الحاجة.

وكان صنم عمرو بن الجموح يُدعَى «مناة»، وهو صنمٌ من الخشب النفيس والقوي، يسرف في رعايته أيُّما إسراف، ويعتني به ويطيِّبه بالعود وكريم الطِّيب.

وكان عمرو بن الجموح قد جاوز الستين من عمره، وحينها كان الإيمان يدخلُ بيوت يثرب بيتًا بيتًا ويملؤها طمأنينةً وبُشرى، على يد أوَّل سفيرٍ في الإسلام «مصعب بن عُمَير» -رضيَ اللهُ عنه-، فآمن على يدَي مصعب أولاده الثلاث؛ مُعَوَّذ ومعاذ وخلَّاد، وصديقهم الوفي معاذ بن جبل، وهو يماثلهم في العمر.

وكذلك آمنت مع أبنائه الثلاث أمهم هند، وهو لا يعرف عن إيمانهم شيئًا.

رأت هند، زوجة عمرو بن الجموح، أن يثرب غلب على أهلها الإسلام، وأنه لم يبقَ من السادة الأشراف أحد على الشِّرك سوى زوجها ونفر قليل معه، وكانت تحبه وتُجِلُّه، وتشفق عليه من أن يموت على الكفر، فيصير إلى النار.

وكان هو في الوقت نفسه يخشى على أبنائه أن يرتدُّوا عن دين آبائهم وأجدادهم، وأن يتبعوا هذا الدَّاعية مصعب بن عمير، الذي استطاع في زمن قليل أن يحوِّل كثيرًا من الناس عن دينهم، وأن يدخلهم في دين محمد.

فقال لزوجته: يا هند، احذري أن يلتقي أولادك بهذا الرجل (يقصد مصعب بن عمير) حتى نرى رأينا فيه.

فقالت: سمعًا وطاعة، ولكن هل لك أن تسمع من ابنك معاذ ما يرويه عن هذا الرجل؟

فقال: ويحك! وهل صبأ معاذ عن دينه وأنا لا أعلم؟!

فأشفقت المرأة الصالحة على الشيخ وقالت: كلا، ولكنه حضر بعض مجالس هذا الداعية، وحفظ شيئًا مما يقوله.

فقال: ادعوه إليَّ. فلما حضر بين يديه قال: أسمعني شيئًا مما يقوله هذا الرجل، فقال: بِ مِ للَّهِ لرَّ مَٰنِ لرَّحِيمِ ١ حَ دُ لِلَّهِ رَبِّ
عٰلَمِينَ ٢ لرَّ مَٰنِ لرَّحِيمِ ٣ مَٰلِكِ يَ مِ لدِّينِ ٤ إِيَّاكَ نَ بُدُ
وَإِيَّاكَ نَ تَعِينُ ٥ دِنَا لصِّرَٰطَ مُ تَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ لَّذِينَ
أَ عَ تَ عَلَ هِ غَ رِ مَ ضُوبِ عَلَ هِ وَلَا لضَّآلِّينَ
٧ [سورة الفاتحة].

فقال: ما أحسن هذا الكلام وما أجمله! أو كُلُّ كلامه مثل هذا؟!

فقال معاذ: وأحسن من هذا يا أبتاه، فهل لك أن تبايعه، فقومك جميعًا قد بايعوه.

سكت الشيخ قليلًا ثم قال: لست فاعلًا حتى أستشير «مناة» فأنظر ما يقول.

فقال له الفتى: وما عسى أن يقول «مناة» يا أبتاه وهو خشب أصم لا يعقل ولا ينطق؟

فقال عمرو غاضبًا: قلت لك لن أقطع أمرًا دونه.

ثم قام عمرو بن الجموح إلى «مناة»، وكانوا إذا أرادوا أن يكلِّموه جعلوا خلفه امرأة عجوزًا، فتجيب عنه يما يُلهمها إياه -في زعمهم-، ثم وقف أمامه بقامته الممدودة، واعتمد على رجله الصحيحة، فقد كانت الأخرى عرجاء شديدة العرج، فأثنى عليه أطيب الثناء، ثم قال: يا «مناة»، لا ريب أنك قد علمت بأن هذا الداعية الذي وفد علينا من مكة لا يريد أحدًا بسوء سواك، وأنه إنما جاء لينهانا عن عبادتك، وقد كرهت أن أبايعه -على الرغم مما سمعته من جميل قوله- حتى أستشيرك، فأشِر عليَّ. فلم يرُد عليه «مناة» بشيء.

فقال: لعلك قد غضبت؟ وأنا لم أصنع شيئًا يؤذيك بعد، ولكن لا بأس، فسأتركك أيامًا حتى يسكت عنك الغضب.

كان أبناء عمرو بن الجموح يعرفون مدى تعلق أبيهم بصنمه «مناة»، وكيف أنه غدا مع الزمن قطعة منه، ولكنهم أدركوا أنه بدأت تتزعزع مكانته في قلبه، وأن عليهم أن ينتزعوه من نفسه انتزاعًا، فذلك سبيله إلى الإيمان.

أدلج أبناء عمرو بن الجموح مع صديقهم معاذ بن جبل إلى مناة في الليل، وحملوه من مكانه، وذهبوا به إلى حفرة لبني سلمة يرمون بها أقذارهم، وطرحوه هناك، وعادوا إلى بيوتهم دون أن يعلم بهم أحد، فلما أصبح عمرو دلف إلى صنمه لتحيته، فلم يجده فقال: ويلكم! من عدا على إلهنا هذه الليلة؟! فلم يجبه أحد بشيء.

فطفق يبحث عنه داخل البيت وخارجه، وهو يُرغي ويزبد ويتهدد ويتوعد حتى وجده مُنَكَّسًا على رأسه في الحفرة، فغسله، وطهَّره وطيَّبه وأعاده إلى مكانه وقال له: أما والله لو أعلم من فعل هذا لأخزيته.

فلما كانت الليلة الثانية عدا الفِتية على «مناة» ففعلوا فيه مثل فعلهم بالأمس، فلما أصبح الشيخ التمسه فوجده في الحفرة مُلَطَّخًا بالأقذار، فأخذه وغسله وطيبه وأعاده إلى مكانه.

وما زال الفتية يفعلون بالصنم مثل ذلك كل يوم، فلما ضاق بهم ذرعًا، راح إليه قبل منامه، وأخذ سيفه فعلَّقه برأسه وقال له:

يا مناة، إني والله ما أعلم من يصنع بك هذا الذي ترى، فإن كان فيك خير فادفع الشر عن نفسك، وهذا السيف معك.

ثم أوى إلى فراشه، فما إن استيقن الفتية من أن الشيخ قد غطَّ في نومه حتى هبُّوا إلى الصنم، فأخذوا السيف من عنقه وذهبوا به خارج المنزل، وربطوه إلى كلب ميت بحبل، وألقوا بهما في بئر لبني سلمة تسيل إليها الأقذار وتتجمع فيها.

فلما استيقظ الشيخ ولم يجد الصنم خرج يلتمسه فوجده مُكِبًّا على وجهه في البئر، مقرونًا إلى كلب ميتٍ، وقد سُلِبَ منه السيف، فلم يخرجه هذه المرة من الحفرة، وإنما تركه حيث ألقوه، وأنشد يقول:

والله لو كنت إلهًا لم تكن أنت وكلبٌ وسط بئر في قرن

ثم ما لبث أن دخل في دين الله.

تذوَّق عمرو بن الجموح من حلاوة الإيمان ما جعله يعضُّ بنان الندم على كل لحظة قضاها في الشرك، فأقبل على الدين الجديد بجسده وروحه، ووضع نفسه وماله وولده في طاعة الله وطاعة رسوله.

وما هو إلا قليل حتى كانت أُحُدٌ، فرأى عمرو بن الجموح أبناءه الثلاث يتجهزون للقاء أعداء الله، ونظر إليهم غادين رائحين كأسد الشَّرى، وهم يتوهجون شوقًا إلى نيل الشهادة والفوز بمرضاة الله، فأثار الموقف حميَّته، وعزم على أن يغدو معهم إلى الجهاد تحت راية رسول الله - -، لكن الفتية أجمعوا على منع أبيهم مما عزم عليه، فهو شيخ كبير طاعن في السن، وهو إلى ذلك أعرج شديد العرج، وقد عذره الله -عزَّ وجلَّ- فيمن عذرهم.

فقالوا له: يا أبانا، إن الله عذرك، فعلام تكلف نفسك ما أعفاك الله منه؟!

فغضب الشيخ من قولهم أشد الغضب، وانطلق إلى رسول الله - - يشكوهم فقال: يا نبي الله، إن أبنائي هؤلاء يريدون أن يحبسوني عن هذا الخير، وهم يتذرعون بأني أعرج، والله إني لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه الجنة.

فقال الرسول -عليه الصلاة والسلام- لأبنائه: دعوه، لعل الله -عزَّ وجلَّ- يرزقه الشهادة.

فَخَلَّوا عنه إذعانًا لأمر رسول الله. وما إن أزف وقت الخروج، حتى ودَّع عمرو بن الجموح زوجته وداع مُفارقٍ لا يعود، ثم اتجه إلى القبلة ورفع كفيه إلى السماء وقال: اللهمَّ ارزقني الشهادة ولا ترُدَّني إلى أهلي خائبًا.

ثم انطلق يحيط به أبناؤه الثلاث، وجموع كبيرة من قومه بني سلمة.

ولما حَمِيَ وطيس المعركة، وتفرق الناس عن رسول الله -صلوات الله عليه، شوهد عمرو بن الجموح يمضي في الرعيل الأول، ويثب على رجله الصحيحة وثبًا وهو يقول: إني لمشتاق إلى الجنة، إني لمشتاق إلى الجنة.

وكان وراءه ابنه خلاَّدٌ، وما زال الشيخ وفتاه يجالدان عن رسول الله - - حتى خرَّا صريعين شهيدين على أرض المعركة، ليس بين الابن وأبيه إلا لحظات، وما إن وضعت المعركة أوزارها حتى قام رسول الله - - إلى شهداء أُحُدٍ ليواريهم ترابهم، فقال لأصحابه: خَلُّوهُم بدمائهم وجراحهم، فأنا الشهيد عليهم.

ثم قال: ما من مسلم يُكْلَمُ في سبيل الله، إلا جاء يوم القيامة يسيل دمًا، اللون كلون الزعفران، والريح كريح المسك. ثم قال: ادفنوا عمرو بن الجموح مع عبد الله بن عمرو، فقد كانا مُتحابَّين متصافيين في الدنيا.

رضي الله عن عمرو بن الجموح وأصحابه من شهداء أَحُد، ونوَّر لهم في قبورهم.

زيد الخير

«لله درك يا زيد، أي رجلٍ أنت؟»

- - رسول الله

قال النبيُّ - -: الناس معادن، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام.

وقد صدقَ النبيُّ فيما قال، وهذ صحابيٌّ يُثبتُ قولَ النبيِّ على الرغم من أنهُ لا يحتاجُ إلى إثبات، فإليك صورتان عن رجلٍ واحد، خُطَّتْ أولاهما في الجاهلية، وأَبْدَعَت أُخراهما أناملُ الإسلام.

ذلك الصحابي هو «زيد الخيل» كما كان يدعوه الناس في الجاهلية، و«زيد الخير» كما دعاه الرسول - - بعد إسلامه.

أما الصورة الأولى فترويها كتب الأدب، تحكي أنَّ شيخًا من بني عامر قال:

أصابتنا سنة مجدبة هلك فيها الزرع والضرع، فخرج رجل منها بعياله إلى الحيرة وتركهم فيها، وقال لهم:

انتظروني هنا حتى أعود إليكم.

ثم أقسم ألا يرجع إليهم إلا إذا كسب لهم مالًا أو يموت. ثم تزوَّد زادًا ومشى يومه كله، حتى إذا أقبل الليل وجد أمامه خباءً (خيمة) وبالقرب من الخباء مُهرٌ مُقيَّد، فقال: هذا أول الغنيمة.

وتوجَّه إليه وجعل يحل قيده، فما إنْ هَمَّ بركوبه حتى سمع صوتًا يناديه: خلِّ عنه واغنم نفسك.

فترَكه ومضى، ثم مشى سبعَة أيام حتى بلغ مكانًا فيه مراح للإبل، وبجانبه خباءٌ فيه قبة من جلد، تُشير إلى الثراء والنعمة، فقال في نفسه: لا بدَّ لهذا المراح من إبل، ولا بد لهذا الخباء من أهل.

ثم نظر في الخباء، وكانت الشمس تدنو من المغيب، فوجد شيخًا فانيًا في وسطه، فجلس خلفه وهو لا يشعر به، وما هو إلا قليل حتى غابت الشمس، وأقبل فارس لم يُرَ قط فارس أعظم منه ولا أجسم، قد امتطى صهوة جوادٍ عالٍ وحوله عبدان يمشيان وعن يمينه وعن شماله ومعه نحو مائة من الإبل أمامها فحل كبير، فبرك الفحل، فبركت حوله النوق، وهنا قال الفارس لأحد عبديه: احلب هذه -وأشار إلى ناقة سمينة- واسقِ الشيخ.

فحلب منها حتى ملأ الإناء، ووضعه بين يدي الشيخ وتنحى عنه، فجرع منه الشيخ جرعة أو جرعتين وتركه.

قال الرجل: فدببت نحوه متخفيًا، وأخذت الإناء وشربت كل ما فيه!

فرجع العبد وأخذ الإناء وقال: يا مولاي، لقد شربه كله.

ففرح الفارس وقال: احلب هذه -وأشار إلى ناقة أخرى- ووضَع الإناء بين يدي الشيخ وتنحى عنه، فجرع منه الشيخ جرعة واحدة وتركه.

قال الرجل: فأخذته، وشربت نصفه، وكرهت أن آتي عليه كله حتى لا أُسيِّر الشك في نفس الفارس.

ثم أمر الفارس عبده الثاني أن يذبح شاة، فذبحها، فقامَ إليها الفارس وشوى للشيخ منها، وأطعمه بيديه حتى شبع، ثم جعل الفارس يأكل هو وعبداه، وما هو إلا قليل حتى أخذ الجميع مضاجعهم، وناموا نومًا عميقًا له غطيط.

عند ذلك توجهت إلى الفحل وحللت عقاله وركبته، فاندفع وتبعته الإبل ومشيتُ ليلتي، فلما أسفر النهار نظرت في كل جهة فلم أرَ أحدًا يتبعني، فاندفعت في السير حتى تعالى النهار.

ثم التفتُّ التفاتة فإذا أنا بشيءٍ كأنه نسر أو طائر كبير، فما زال يدنو مني حتى تبيَّنته، فإذا هو فارسٌ على فرس، ثم ما زال يقبل عليَّ حتى عرفت أنه صاحبي الذي بالأمس جاء ينشد إبله.

عند ذلك عقَلْتُ الفحل وأخرجت سهمًا من كنانتي ووضعته في قوسي، وجعلتُ الإبل خلفي، فوقف الفارس بعيدًا، وقال لي: احلل عقال الفحل.

قلت: كلا، لقد تركت ورائي نسوة جائعات بالحيرة (منطقة شمال الجزيرة العربية) وأقسمت ألا أرجع إليهنَّ إلا معي مال أو أموت.

قال: إنك ميت، احلل عقال الفحل لا أبًا لك. فقلت: لن أحله. فقال: ويحك إنك لمغرور.

ثم قال الفارس: دَلِّ زمام الفحل. وكان في الزمام ثلاث عُقَد، ثم سألني في أيِّ عقدة منها أريد أن يضع لي السهم، فأشرت في الوسطى، فرمى السهمَ فأدخله فيها حتى لكأنما وضعه بيديه، ثم أصاب العقدة الثانية والثالثة!

عند ذلك، أعدت سهمي إلى كنانتي، ووقفت مستسلمًا، فدنا مني وأخذ سيفي وقوسي، وأمرني أن أركب خلفه، ثم فقال: كيف تظن أني فاعل بك؟

فقلت: أسوأ الظن. قال: ولم؟ قلت: لما فعلته بك وما أنزلتُه بك من عناء وقد أظفرك الله بي.

فقال: أو تظنُّ أني فاعل بك سوءًا وقد شاركتَ «مُهلهلًا» (يعني أباه) في شرابه وطعامه ونادمته تلك الليلة؟!

فلما سمعت اسم «مهلهل» قلت: أزيد الخيل أنت؟ قال: نعم. فقلتُ: كن خير آسِر. فقال: لا بأس عليك.

ومضى إلى موضعه وقال: والله لو كانت هذه الإبل لي لسلَّمتُها إياك، ولكنها لأخت من إخوتي، فأقم عندنا أيامًا، أنا على وشك غارة قد أغنم منها.

وما هي إلا أيام ثلاث حتى أغار على بني نمير، فغنم قريبًا من مائة ناقة، فأعطاني إياها كلها، وبعث معي رجالًا من عنده يحمونني حتى وصلت عند أهلي في الحيرة!

هذهِ كانت صورةُ زيد الخيل في الجاهلية، فكرمٌ وأخلاقٌ وحِلمٌ وتمهُّلٌ وصفح، فكيفَ برجلٍ هذه أخلاقهُ في الجاهلية أن يكون في الإسلام؟!

لما بلغت أخبار النبي محمد سَمْعَ زيد الخيل ووقف على شيء مما يدعو إليه، أعد راحلته وجمع السادة الكبراء من قومه وفيهم زر بن سدوس، ومالك بن جبير، وعامر بن جوين، وغيرهم ودعاهم إلى زيارة يثرب ولقاء النبي، وكان سيد قومه، وفارسًا عظيمًا، إذا أسلم أسلم معه كبار القوم وعليتهم. وركب زيد الخيل، ومعه وفد كبير من طيء، فلما بلغوا المدينة، توجهوا إلى المسجد النبوي الشريف، وأناخوا ركائبهم ببابه، وصادف عند دخولهم أن كان النبي يخطب المسلمين على المنبر وقت خطبة الجمعة، فراعهم كلامه، وأدهشهم تعلق المسلمين به.

ولقد كان النبي فطنًا، فلما أبصرهم ورأى وفدًا يدخل المسجد أول مرة، حتى أدار بعض الكلام وخاطبهم به، فقال: إني خير لكم من العزى، ومن كل ما تعبدون، إني خير لكم من الجمل الأسود، الذي تعبدونه من دون الله.

فوقع كلام الرسول في نفس زيد الخيل ومن معه موقعين مختلفين، بعضهم استجاب للحق، وأقبل عليه، وبعضهم تولى عنه واستكبر عليه مثل زر بن سدوس الذي دب الحسد في قلبه، وملأ الخوف فؤاده عندما رأى رسول الله

في موقفه الرائع، تحفَّه القلوب، وتحوطه الأعين، ثم قال لمن معه: إني لأرى رجلًا ليملكنَّ رِقاب العرب، والله لا أجعله يملك رقبتي أبدًا.

ثم توجه إلى بلاد الشام، وحلق رأسه وتنصر. وأما زيد والآخرون، فقد كان لهم شأن آخر، فما إن انتهى النبي من خطبته، حتى وقف زيد الخيل بين جموع المسلمين، وقف بقامته الممشوقة، وأطلق صوته الجهير وقال: يا محمد، أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله.

أقبل النبي على زيد الخيل ثم قال: من أنت؟

قال: أنا زيد الخيل بن مهلهل.

فقال: بل أنت زيد الخير، لا زيد الخيل، الحمد لله الذي جاء بك من سهلك وجبلك، ورقق قلبك للإسلام. فعُرف بعد ذلك بزيد الخير.

ثم أسلم مع زيد جميع من صحبه مِن قومه ثم مضى به النبي إلى منزله، ومعه عمر بن الخطاب، ولفيف من الصحابة، فلما بلغوا البيت طرح النبي لزيد متكئًا، فعظُم عليه أن يتكئ في حضرة النبي، على الرغم من أنه لم يمضِ على إسلامه سوى نصف ساعة، أو ربع ساعة، وقال: والله يا رسول الله، ما كنت لأتكئ في حضرتك.

وردَّ المتكأ وما زال يعيده إلى النبي وهو يردُّه، ولما استقر بهم المجلس، قال لزيد الخير: يا زيد، ما وُصف لي رجل قط ثم رأيته، إلا كان دون ما وُصف، إلَّا أنت.

ثم قال: يا زيد، إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله.

قال: وما هما يا رسول الله؟

قال: الأناة والحلم.

فقال زيد الخير بكلِّ أدب: الحمد لله الذي جعلني على ما يُحب الله ورسوله.

ثم التفت إلى النبي وقال: يا رسول الله، أعطني ثلاثمائة فارس، وأنا كفيل لك بأن أغير بهم على بلاد الروم وأنال منهم.

فأكبر النبي همته هذه، وقال له: لله درك يا زيد، أي رجلٍ أنت؟!

لما همَّ زيد بالرجوع إلى بلاده في نجد ودَّعه النبي، وقال بعد أن ودَّعه: أي رجل هذا؟ كم سيكون له من الشأن، لو سَلِمَ من وباء المدينة.

وكانت المدينة آنئذ موبوءة بالحمى، فما إن برحها زيد الخير حتى أصابته، فقال لمن معه: جنبوني بلاد قيس، فقد كانت بيننا وبينهم حماسات من حماقات الجاهلية، ولا والله لا أقاتل مسلمًا حتى ألقى الله -عز وجل-.

وتابع زيد الخير سيره نحو ديار أهله في نجد على الرغم من أن وطأة الحمى كانت تشتد عليه ساعة بعد أخرى، وقد كانَ يتمنى أن يلقى قومه وأن يكتب الله لهم الإسلام على يديه.

وطفق يسابق المنيَّة والمنيَّةُ تسابقه، لكنها ما لبثت أن سبقته، فلفظ أنفاسه الأخيرة في بعض طريقه، ولم يكن بين إسلامه وموته متسعٌ من الوقت حتى يقع في ذنب، فرحمَ الله زيدَ الخير!

عاصم بن ثابت

﴿وَمَا يَ لَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُ ﴾

[المدَّثر، آية: 31]

خرجت قريشٌ بقضِّها وقضيضها، وسادتها وعبيدها إلى لقاء محمد بن عبد الله في أحد، فقد كانت الأضغان تشحن صدورها شحنًا، والثَّارات لقتلاها في بدرٍ تَسْتَعِرُ في دمائها استعارًا. ولم يكفها ذلك، وإنما أخرجت معها العَقَائل من نساء قريشٍ، ليُحرِّضن الرجال على القتال، ويُضرمن الحمية في نفوس الأبطال، ويشدُدْن عزائمهم كلما وَنَوا أو ضعفوا.

وكان في جملة من خرجت معهنَّ هند بنت عتبة زوج أبي سفيان، ورَيْطَة بنت مُنبِّه زوج عمرو بن العاص، وسلافة بنت سعد ومعها زوجها طلحة وأولادها الثلاث؛ مسافعٌ، والجُلاسُ وكِلابٌ، ونساءٌ كثيرات غيرهن.

ولما التقى الجمعان عند أُحُدٍ وأخذت نار الحرب تستعر، قامت هند بنت عتبة ومن معها من النسوة، فوقفنَ خلف الصفوف، وأخذن بأيديهنَّ الدفوف، وجعلن يضربن عليها منشدات:

إن تُقبلوا نُعانقْ ونفرُشِ النمارقْ

أو تُدبِـروا نُفـارِقْ فِراقَ غيرِ وامِقْ

فكان نشيدهنَّ هذا يُضرم في صدور الفرسان الحَمِيَّة، ويفعل في نفوس أزواجهنَّ فعل السحر.

ثم وضعت المعركة أوزارها، وكُتب فيها النصرُ لقريشٍ على المسلمين، فقامت النسوة -وقد استفزَّتهُنَّ حُمَيًّا الظَّفر- وطَفِقنَ يَجُسْنَ خلال ساحة المعركة مزغرداتٍ، وأخذن يُمثِّلن بالقتلى أفظع تمثيلٍ: فبَقَرْن البطون، وسَمَلْن الأعين، وصَلَمْن الآذان، وجَدَعْن الأنوف، بل إنَّ إحداهنَّ لم يَشفِ غيظها إلَّا أن جعلت من الأنوف والآذان قلائد وخلاخيل وتزيَّنت بها انتقامًا لأبيها وأخيها وعمِّها الذين قُتلوا في بدر، لكنَّ سُلافة بنت سعدٍ كان لها شأنٌ غير شأنِ أترابها من نساء قريش، فقد كانت قلقةً مضطربةً، تنتظر أن يُقبل عليها زوجُها أو أحد أبنائها الثلاث، لتقف على أخبارهم وتشارك النسوة الأخريات فرحة النصر، بيد أنَّ انتظارها قد طال عبثًا، فأوْغَلَت في أرض المعركة، وجعلت تتفحَّص وجوه القتلى، فإذا بها تجد زوجها صريعًا مُضرَّجًا

بدمائه، فهبَّت كاللبُؤَة المذعورة، وجعلت تُطلق بصرها في كل صوبٍ بحثًا عن أولادها: مُسافع وكِلابٍ والجُلاس.

فما لبثت أن رأتهم ممدَّدين على سُفُوح أحد. أما مُسافع وكِلاب، فكانا قد فارقا الحياة، وأما الجُلاس فوجدته وما تزال به بقيَّةٌ من ذَمَاء.

أكبَّت سلافة على ابنها الذي يعالج سكرات الموت، ووضعت رأسه في حِجرها، وجعلت تمسح الدماء عن جبينه وفمه، وقد يبِس الدمع في عينيها من هول الكارثة، ثم أقبلت عليه وهي تقول: من صَرَعك يا بني؟ فهمَّ أن يُجيبها لكن حشرجة الموت منعته، فألحَّت عليه بالسؤال فقال: صرعني عاصم بن ثابت، و... صرع أخي مُسافعًا، و... ثم لفظ آخر أنفاسه.

جنَّ جنون سلافة بنت سعد، وجعلت تعول وتَنْشِج، وأقسمت باللَّات والعُزَّى ألَّا تهدأ لها لوعة أو ترقأ لعينيها دمعة إلا إذا ثأرت لها قريشٌ من عاصم بن ثابتٍ، وأعطتها قِحْفَ رأسه (أي جمجمته) لتشرب فيها الخمر، ثم نذرت لمن يأسره أو يقتله ويأتيها برأسه، أن تعطيه ما يشاء من مُنفَس المال.

فشاع خبر نذرها في قريش، وجعل كل فتىً من فتيان مكَّة يتمنَّى أن لو ظفر بعاصم بن ثابت، وقدَّم رأسه لسلافة لعلَّه يكون الفائز بجائزتها.

عاد المسلمون إلى المدينة بعد أحدٍ، وجعلوا يتذاكرون المعركة وما كان فيها، فيترحَّمون على الأبطال الذين استُشهدوا وينوِّهون بالكُمَاة الذي أبلوا وجالدوا، فذكروا فيمن ذكروهم عاصمًا بن ثابتٍ، وعجبوا كيف اتَّفق له أن يُردي ثلاثة إخوةٍ من بيتٍ واحدٍ في جملة من أرداهم.

فقال قائلٌ منهم: وهل في ذلك من عجب؟! أفلا تذكرون رسول الله -صلوات الله عليه- حين سألنا قُبيل بدرٍ كيف تقاتلون؟ فقام له عاصم بن ثابتٍ، وأخذ قوسه بيده وقال: إذا كان القوم قريبًا منِّي مِائة ذراعٍ كان الرمي بالسِّهام، فإذا دَنَوا حتى تنالهم الرِّماح كانت المداعَسَة إلى أن تتقصَّف الرماح، فإذا تقصَّفت الرماح وضعناها وأخذنا السيوف وكانت المُجَالدة.

فقال عليه الصلاة والسلام: هكذا الحرب، من قاتل فليُقاتل كما يُقاتل عاصم.

لم يمضِ غير قليلٍ على أحدٍ حتى انتدب رسول الله - - ستةً من كِرَامِ الصحابة لبَعْثٍ من بُعوثِه، وأمَّر عليهم عاصمًا بن ثابت، فمضى النَّفر الأخيار

لإنفاذ ما أمرهم به النبي -عليه الصلاة والسلام-، وفيما هم في بعض الطريق -غير بعيد عن مكَّة- علمت بهم جماعةٌ من هُذَيل، فهبُّوا نحوهم مسرعين وأحاطوا بهم إحاطة القيد بالعنق، فامتَشَقَ عاصمٌ ومن معه سيوفهم وهمُّوا بمُنَازَلَة المطبقين عليهم.

فقال لهم الهُذَلِيُّون: إنكم لا قِبَلَ لكم بنا، وإننا والله لا نريد بكم شرًّا إذا استسلمتم لنا، ولكم على ذلك عهد الله وميثاقه.

فجعل صحابة رسول الله - - ينظر بعضهم إلى بعض كأنَّهم يتشاورون فيما يصنعون، فالتفت عاصمٌ إلى أصحابه وقال: أما أنا فلا أنْزِل في ذِمَّة مشرك.

ثم تذكَّر نِذر سلافةَ الذي نذرته، وجرَّد سيفه وهو يقول: اللَّهمَّ إني أَحْمَى لدينك وأدافع عنه، فاحم لحمي وعظمي ولا تُظفِر بهما أحدًا من أعداء الله.

ثم كرَّ على الهُذليين، وتبعه اثنان من أصحابه، وظلُّوا يقاتلون حتى صُرعوا واحدًا بعد آخر، أما بقيةُ أصحابه فاستسلموا لآسريهم، فما لبِثُوا أن غدروا بهم شرَّ غَدْرَة.

لم يكن الهُذليون في بادئ الأمر يعلمون أنَّ عاصمًا بن ثابت هو أحد قتلاهم، فلما عرفوا ذلك فرحوا به أشدَّ الفرح، ومنَّوا أنفسهم بجزيل العطاء. ولا غَرْوَ، ألم تكن سلافة بنت سعدٍ قد نذرت إن هي ظفرت بعاصم بن ثابت أن تشرب في قحف رأسه الخمر؟ ألم تكن قد جعلت لمن يأتيها به حيًّا أو ميْتًا ما يشاء من المال؟!

لم يمضِ على مصرع عاصم بن ثابتٍ بضع ساعاتٍ حتى علمت قريش بمقتله، فقد كانت هذيلٌ تقيم قريبًا من مكة، فأرسل زعماء قريشٍ رسولًا من عندهم إلى قتلة عاصم يطلبون منهم رأسه ليطفئوا بها غُلَّة سلافة بنت سعدٍ ويُبِرُّوا قسمها، ويُخفِّفوا بعض أحزانها على أولادها الثلاث الذين صرعهم عاصمٌ بيده. وحمَّلوا الرسول مالًا وفيرًا، وأمروه أن يَبْذُلَه للهُذليين بسخاءٍ لقاء رأس عاصمٍ.

قام الهُذليون إلى جسد عاصم بن ثابتٍ ليفصلوا عنه رأسه، ففوجئوا بأسراب النحل وجماعات الزنابير قد حطَّت عليه، وأحاطت به من كلِّ جانبٍ، فكانوا كلما راموا الاقتراب من جثَّته طارت في وجوههم، ولدغتهم في أعينهم وجباههم وكلِّ موضعٍ في أجسادهم، وذادتهم عنه، فلما يئسوا من الوصول

إليه بعد أن حاولوا الكَرَّة تلو الكَرَّة، قال بعضهم لبعض: دعوه حتى يَجِنَّ عليه الليل، فإنَّ الزنابير إذا حلَّ الظلام جلت عنه وخلَّته لكم.

ثم جلسوا ينتظرون غير بعيد، لكنه ما كاد ينصرِمُ النهار ويقبل الليل حتى تلبَّدت السماء بالغيوم الكثيفة الدُّكْن، وأرعد الجوُّ وأزْبَدَ، وانهمر المطر انهمارًا لم يشهد له المعمِّرون مثيلًا منذ وُجدوا على تلك الأرض، وسرعان ما سالت الشِّعاب وامتلأت البِطاح وغُمرت الأودية، واكتسح المنطقة سيلٌ كسيل العَرِم. فلما انبَلَجَ الصُّبح قامت هُذيلٌ تبحث عن جسد عاصم في كل مكان، فلم تَقِف له على أثر.

ذلك أن السَّيل أخذه بعيدًا بعيدًا، ومضى به إلى حيث لا يعلمون، وصان رأسه الكريم من أن يُشرب في قِحفِها الخمر.

عبد الله بن عمرو بن العاص

«إن عبد الله يصوم النهار كله،

ويقوم الليل كله»

عمرو بن العاص، يشكو ابنه للنبي

هو: عبد الله بن عمرو بن العاص، كان أبوه أستاذًا في الذكاء والدهاء وسعة الحيلة، كان هو أستاذًا ذا مكانة عالية بين العابدين الزاهدين الواضحين، لقد أعطى العبادة وقته كله، وحياته كلها، وثمل بحلاوة الإيمان، فلم يعد الليل والنهار يتسعان لتعبُّده ونسكه، ولقد سبق أباه إلى الإسلام، ومنذ وضع يمينه في يمين الرسول - - مبايعًا، وقلبه مضاء كالصبح النضير بنور الله ونور طاعته، عكف أولًا على القرآن الذي كان يتنزل منجَّمًا، فكان كلما نزلت منه آيات حفظها وفهمها، حتى إذا تمَّ واكتمل، كان لجميعه حافظًا، ولم يكن يحفظه ليكون مجرَّد ذاكرة قوية، تضمُّ بين دفتيها كتابًا محفوظًا، بل كان يحفظه ليعمر به قلبه، وليكون بعد هذا عبده المطيع، يحلُّ ما أحلَّ، ويحرِّم ما يحرِّم، ويجيب له في كل ما يدعو إليه ثم يعكف على قراءته، وتدبُّره، وترتيله، متأنقًا في روضاته اليانعات، محبور النفس بما تفيئه آياته الكريمة من غبطة، باكي العين بما تثيره من خشية!

كان عبد الله قد خُلق ليكون قدِّيسًا عابدًا، ولا شيء في الدنيا كان قادرًا على أن يشغله عن هذا الذي خلق له، وهدي إليه، إذا خرج جيش الإسلام إلى جهاد يلاقي فيه المشركين الذين يشنون عليه لحروب والعداوة، وجدناه في مقدمة الصفوف يتمنى الشهادة بروح محب، وإلحاح عاشق! فإذا وضعت الحرب أوزارها، فأين نراه؟

هناك في المسجد الجامع، أو في مسجد داره، صائم نهاره، قائم ليله، لا يعرف لسانه حديثًا من أحاديث الدنيا مهما يكن حلالًا، إنما هو رطب دائمًا بذكر الله، تاليًا قرآنه، أو مسبِّحًا بحمده، أو مستغفرًا لذنبه، وحسبنا إدراكًا لأبعاد عبادته ونسكه، أن نرى الرسول الذي جاء يدعو الناس إلى عبادة الله يجد نفسه مضطرًا للتدخل كما يجد من إيغال عبد الله في العبادة!

وهكذا إذا كان أحد وجهي العظة في حياة عبد الله بن عمرو، الكشف عما تزخر به النفس الإنسانية من قدرة فائقة على بلوغ أقصى درجات التعبُّد والتجرُّد والصلاح، فإن وجهها الآخر هو حرص الدين على القصد والاعتدال في طلب كل تفوُّق واكتمال، حتى يبقى للنفس حماستها وأشواقها، وحتى تبقى للجسد عافيته وسلامته!

لقد علم رسول الله - - أن عبد الله بن عمرو بن العاص يقضي حياته على وتيرة واحدة، وما لم يكن هناك خروج في غزوة فإن أيامه كلها تتلخص في أنه من الفجر إلى الفجر في عبادة موصولة، صيام وصلاة، وتلاوة قرآن، فاستدعاه النبي إليه، وراح يدعوه إلى القصد في عبادته، قال له الرسول -عليه الصلاة والسلام-: ألم أخبر أنك تصوم النهار، ولا تفطر، وتصلي الليل لا تنام؟ فحسبك أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام.

قال عبد الله: إني أطيق أكثر من ذلك.

قال النبي - -: فحسبك أن تصوم من كل جمعة يومين.

قال عبد الله: فإني أطيق أكثر من ذلك.

قال رسول الله - -: فهل لك إذن في خير الصيام، صيام داود، كان يصوم يومًا ويفطر يومًا.

وعاد الرسول -عليه الصلاة والسلام- يسأله قائلًا: وعلمت أنك تجمع القرآن في ليلة، وإني أخشى أن يطول بك العمر وأن تملَّ قراءته. اقرأه في كل شهر مرَّة، اقرأه في كل عشرة أيام مرَّة، اقرأه في كل ثلاث مرَّة.

ثم قال له: إني أصوم وأفطر، وأصلي وأنام، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني.

ولقد عمَّر عبد الله بن عمرو طويلًا، ولما تقدمت به السن ووهن منه العظم كان يتذكر دائمًا نصح الرسول فيقول: يا ليتني قبلت رخصة رسول الله.

إن مؤمنًا من هذا الطراز ليصعب العثور عليه في معركة تدور رحاها بين جماعتين من المسلمين، فكيف حملته ساقاه إذن من المدينة إلى صفين حيث أخذ مكانًا في جيش معاوية في صراعه مع الإمام علي؟

الحق أن موقف عبد الله هذا جدير بالتدبُّر، بقدر ما سيكون بعد فهمنا له جديرًا بالتوقير والإجلال.

رأينا كيف كان عبد الله بن عمرو مقبلًا على العبادة إقبالًا كاد يشكِّل خطرًا حقيقيًّا على حياته، الأمر الذي كان يشغل بال أبيه دائمًا، فيشكوه إلى رسول الله كثيرًا.

وفي المرة الأخيرة التي أمره الرسول فيها بالقصد في العبادة وحدد له مواقيتها كان عمرو حاضرًا، فأخذ الرسول يد عبد الله، ووضعها في يد عمرو بن العاص أبيه، وقال له: «افعل ما أمرتك، وأطع أباك».

وعلى الرغم من أن عبد الله كان بدينه وبخلقه مطيعًا لأبويه، فقد كان أمر الرسول له بهذه الطريقة وفي هذه المناسبة ذا تأثير خاص على نفسه.

وعاش عبد الله بن عمرو عمره الطويل لا ينسى لحظة من نهار تلك العبارة الموجزة. «افعل ما أمرتك، وأطع أباك».

وتتابعت في موكب الزمن أعوام وأيام، ورفض معاوية بالشام أن يبايع عليًّا، ورفض علي أن يذعن لتمرُّد غير مشروع، وقامت الحرب بين طائفتين من المسلمين، ومضت موقعة الجمل، وجاءت موقعة صفين.

كان عمرو بن العاص قد اختار طريقه إلى جوار معاوية، وكان يدرك مدى إجلال المسلمين لابنه عبد الله ومدى ثقتهم في دينه، فأراد أن يحمله على الخروج ليكسب جانب معاوية بذلك الخروج كثيرًا.

كذلك كان عمرو يتفاءل كثيرًا بوجود عبد الله إلى جواره في قتال، وهو لا ينسى بلاءه معه في فتوح الشام، ويوم اليرموك، فحين همَّ بالخروج إلى صفين دعاه إليه وقال له: يا عبد الله، تهيأ للخروج، فإنك ستقاتل معنا.

وأجابه عبد الله: كيف وقد عهد إليَّ رسول الله - - ألا أضع سيفًا في عنق مسلم أبدًا؟

وحاول عمرو بدهائه إقناعه بأنهم إنما يريدون بخروجهم هذا أن يصلوا إلى قتلة عثمان وأن يثأروا لدمه الزكيِّ.

ثم ألقى مفاجأته الحاسمة قائلًا لولده: أتذكر يا عبد الله آخر عهد عهده رسول الله - - حين أخذ بيدك فوضعها في يدي وقال لك: أطع أباك؟ فإني أعزم عليك الآن أن تخرج معنا وتقاتل.

وخرج عبد الله بن عمرو طاعة لأبيه، وفي عزمه ألا يحمل سيفًا ولا يقاتل مسلمًا، ولكن كيف يتم له هذا؟

حسبه الآن أن يخرج مع أبيه، أما حين تكون المعركة فلله ساعتئذ أمر يقضيه.

ونشب القتال حاميًا ضاريًا، ويختلف المؤرخون فيما إذا كان عبد الله قد اشترك في بدايته أم لا، ونقول: بدايته، لأن القتال لم يلبث إلا قليلًا، حتى وقعت واقعة جعلت عبد الله بن عمرو يأخذ مكانه جهارًا ضدَّ الحرب، وضدَّ معاوية، وذلك أن عمَّارًا بن ياسر كان يقاتل مع عليٍّ، وكان عمَّار موضع إجلال مطلق من أصحاب الرسول، وأكثر من هذا، فقد تنبأ في يوم بعيد بمصرعه ومقتله.

كان ذلك والرسول وأصحابه يبنون مسجدهم بالمدينة إثر هجرتهم إليها، وكانت الأحجار عاتية ضخمة لا يطيق أشد الناس قوة أن يحمل منها أكثر من حجر واحد، لكن عمارًا من فرط غبطته ونشوته، راح يحمل حجرين حجرين، وبصر به الرسول فتملاه بعينين دامعتين وقال: ويح ابن سميَّة، تقتله الفئة الباغية.

سمع كل أصحاب رسول الله المشتركين في البناء يومئذ هذه النبوءة، ولا يزالون لها ذاكرين.

وكان عبد الله بن عمر أحد الذين سمعوا.

وفد بدء القتال بين جماعة عليٍّ وجماعة معاوية، كان عمَّار يصعد الروابي ويحرِّض بأعلى صوته ويصيح: اليوم نلقى الأحبة، محمدًا وصحبه.

وتواصى بقتله جماعة من جيش معاوية، فسددوا نحوه رمية آثمة، نقلته إلى عالم الشهداء الأبرار.

وسرى النبأ كالريح أن عمَّارًا قد قُتل، وانقضَّ عبد الله بن عمرو ثائرًا مهتاجًا: أوقد قُتل عمار؟

وأنتم قاتلوه؟ إذن أنتم الفئة الباغية، أنتم المقاتلون على ضلالة!

وانطلق في جيش معاوية كالنذير، يثبط عزائمهم، ويهتف فيهم أنهم بغاة، لأنهم قتلوا عمارًا وقد تنبأ له الرسول منذ سبع وعشرين سنة على ملأ من المسلمين بأنه ستقتله الفئة الباغية، وحُملت مقالة عبد الله إلى معاوية، ودعا عمرًا وولده عبد الله، وقال لعمرو: ألا تكف عنا مجنونك هذا؟

قال عبد الله: ما أنا بمجنون، ولكني سمعت رسول الله - - يقول لعمار: تقتلك الفئة الباغية.

فقال له معاوية: فلمَ خرجت معنا؟

قال عبد الله: لأن رسول الله أمرني أن أطيع أبي، وقد أطعته في الخروج، ولكني لا أقاتل معكم.

وإذ هما يتحاوران دخل على معاوية من يستأذن لقاتل عمار في الدخول، فصاح عبد الله بن عمرو: ائذن له وبشره بالنار.

وأفلتت مغايظ معاوية على الرغم من طول أناته، وسعة حلمه، وصاح بعمرو: أوما تسمع ما يقول؟

وعاد عبد الله في هدوء المتقين واطمئنانهم، يؤكد لمعاوية أنه ما قال إلا الحق، وأن الذين قتلوا عمارًا ليسوا إلا بغاة، والتفت صوب أبيه وقال: لولا أن رسول الله أمرني بطاعتك ما سرت معكم هذا المسير.

وخرج معاوية وعمرو يتفقدان جيشهما، فروِّعا حين سَمِعَا الناس جميعًا يتحدثون عن نبوءة الرسول لعمار: تقتلك الفئة الباغية.

وأحس عمرو ومعاوية أن هذه المهمة توشك أن تتحول إلى نكوص عن معاوية وتمرُّد عليه، ففكرا حتى وجدا حيلتهما التي مضيا يبثانها في الناس، قالا: نعم، إن رسول الله - - قال لعمار ذات يوم: تقتلك الفئة الباغية. ونبوءة الرسول حق، وها هو ذا عمار قد قُتل، فمن قتله؟ إنما قتله الذين خرجوا به، وحملوه معهم إلى القتال.

وفي مثل هذا الهرَج يمكن لأي منطق أن يروَّج، وهكذا راج منطق معاوية وعمرو، واستأنف الفريقان القتال، وعاد عبد الله بن عمرو إلى مسجده وعبادته، وعاش حياته لا يملؤها بغير مناسكه وتعبُّده، غير أن خروجه إلى صفين مجرَّد خروجه، ظل مبعوث قلق له على الدوام، فكان لا تلم به الذكرى حتى يبكي ويقول: ما لي ولصفين؟ ما لي ولقتال المسلمين؟

وذات يوم وهو جالس في مسجد الرسول مع بعض أصحابه مرَّ بهم الحسين بن علي -رضي الله عنهما- وتبادلا السلام، ولما مضى عنهم قال عبد الله لمن معه: أتحبون أن أخبركم بأحب أهل الأرض إلى أهل السماء؟ إنه هذا الذي مرَّ بنا الآن؛ الحسين بن علي، وإنه ما كلمني منذ صفين، ولأن يرضى عني أحب إليَّ من حمر النعم.

واتفق مع أبي سعيد الخدري على زيارة الحسين، وهناك في دار الحسين تم لقاء الأكرمين، وبدأ عبد الله بن عمرو الحديث، فأتى على ذكر صفين فسأله الحسين معاتبًا: ما الذي حملك على الخروج مع معاوية؟

قال عبد الله: ذات يوم شكاني عمرو بن العاص إلى رسول الله - - وقال له: إن عبد الله يصوم النهار كله، ويقوم الليل كله.

فقال لي رسول الله - -: يا عبد الله، صل ونم، وصم وأفطر، وأطع أباك. ولما كان يوم صفين أقسم عليَّ أبي أن أخرج معهم، فخرجت، ولكن والله ما اخترطت سيفًا، ولا طعنت برمح، ولا رميت بسهم.

وبينما هو يتوغل الثانية والسبعين من عمره المبارك، وإذ هو في مصلاه، يتضرَّع إلى ربه، ويسبِّح بحمده، دُعي إلى رحلة الأبد، فلبى الدعاء في شوق عظيم، وإلى إخوانه الذين سبقوه بالحسنى، ذهبت روحه تسعى وتطير، والبشير يدعوها من الرفيق الأعلى: يَٰٓأَيَّتُهَا لنَّ سُ مُط مَئِنَّةُ ٢٧ جِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّ ضِيَّةً ٢٨ فَ خُلِي فِي عِبَٰدِي ٢٩ وَ خُلِي جَنَّتِي ٣٠ [سورة الفجر].

عمير بن سعد

«نسيج وحده»

إنه عمير بن سعد، الذي لقَّبه المسلمون بـ «نسيج وحده»!

رجلٌ يُجمع على تلقيبه بهذا اللقب أصحاب رسول الله، وبما معهم من فضل وفهم ونور!

أبوه سعد القارئ -رضي الله عنه- شهد بدرًا مع رسول الله والمشاهد بعدها، وظلَّ أمينًا على العهد حتى لقي الله شهيدًا في موقعة القادسية، ولقد اصطحب ابنه إلى الرسول، فبايع النبي وأسلم، ومنذ أسلم عمير وهو عابد مقيم في محراب الله، يهرب من الأضواء، ويفيء إلى سكينة الظلال.

هيهات أن تعثر عليه في الصفوف الأولى، إلا أن تكون صلاة، فهو يرابط في صفها الأول ليأخذ ثواب السابقين، وإلا أن يكون جهادًا، فهو يهرول إلى الصفوف الأولى، راجيًا أن يكون من المستشهدين!

وفيما عدا هذا، فهو هناك عاكف على نفسه ينمي برَّها وخيرها وصلاحها وتقاها، متبتل، ينشد أوبه، أوَّاب، يبكي ذنبه، مسافر إلى الله في كل ظعن، وفي كل مقام.

لقد جعل الله له في قلوب الأصحاب ودًّا، فكان قرَّة أعينهم ومهوى أفئدتهم، ذلك أن قوة إيمانه، وصفاء نفسه، وهدوء سمته، وعبير خصاله، وإشراق طلعته، كان يجعله فرحة وبهجة لكل من يجالسه أو يراه.

لم يكن عمير يؤثر على دينه أحدًا، ولا شيئًا، إذ سمع يومًا «جلاس بن سويد بن الصامت» -وكان قريبًا له- سمعه يومًا وهو في دارهم يقول: لئن كان الرجل صادقًا، لنحن شرٌّ من الحمر.

وكان يعني بالرجل رسول الله - -، وكان جلاس من الذين دخلوا الإسلام رهبًا.

سمع عمير بن سعد هذه العبارات ففجرت في نفسه الوديعة الهادئة الغيظ والحيرة، الغيظ، لأن واحدًا يزعم أنه من المسلمين يتناول الرسول بهذه اللهجة الرديئة، والحيرة، لأن خواطره دارت سريعًا على مسؤوليته تجاه هذا الذي سمع وأنكر، ينقل ما سمع إلى رسول الله؟ كيف والمجالس بالأمانة؟ أيسكت ويطوي صدره ما سمع؟ كيف؟ وأين ولاؤه ووفاؤه للرسول الذي هداهم الله به من ضلالة، وأخرجهم من ظلمة؟

لكن حيرته لم تطل، فصدق النفس يجد دائمًا لصاحبه مخرجًا، وعلى الفور تصرَّف عمير كرجل قوي، وكمؤمن تقي، فوجه حديثه إلى جلاس بن سويد: والله يا جلاس، إنك لمن أحب الناس إلي، وأحسنهم عندي يدًا، وأعزهم عليَّ أن يصيبه شيء يكرهه، ولقد قلت الآن مقالة لو أذعتها عنك لآذتك، وإن صمتُّ عليها، ليهلكن ديني، وإن حق الدين لأولى بالوفاء، وإني مبلغ رسول الله ما قلت.

وأرضى عمير ضميره الورع تمامًا، فهو أولًا أدَّى أمانة المجلس حقها، وارتفع بنفسه الكبيرة عن أن يقوم بدور المتسمِّع الواشي، وهو ثانيًا أدى لدينه حقه، فكشف عن نفاق مريب، وهو ثالثًا أعطى جلاس فرصة للرجوع عن خطئه واستغفار الله منه حين صارحه بأنه سيبلغ الرسول - -، ولو أنه فعل آنئذ، لاستراح ضمير عمير ولم تعد به حاجة لإبلاغ الرسول -عليه السلام-، بيد أن جلاسًا أخذته العزة بالإثم، ولم تتحرك شفتاه بكلمة أسف أو اعتذار، وغادرهم عمير وهو يقول: لأبلغنَّ رسول الله قبل أن ينزل وحي يشركني في إثمك.

وبعث رسول الله - - في طلب جلاس فأنكر أنه قال، بل حلف بالله كاذبًا.

لكن آية القرآن جاءت تفصل بين الحق والباطل: يَ لِفُونَ بِ للَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَ قَالُواْ كَلِمَةَ كُ رِ وَكَفَرُواْ بَ دَ إِ لَٰمِهِ وَهَمُّواْ بِمَا لَ يَنَالُو وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَ أَ نَىٰهُمُ للَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَ لِهِ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَ رٗا لَّهُ وَإِن يَتَوَلَّ اْ يُعَذِّ هُمُ للَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي لدُّ يَا وَ أٓخِرَ وَمَا لَهُ فِي أَ ضِ مِن وَلِ وَلَا نَصِي ٧٤ [سورة التوبة، آية: 74].

واضطر جلاس أن يعترف بمقاله، وأن يعتذر عن خطيئته، لا سيما حين رأى الآية الكريمة التي تقرر إدانته، تعده في نفس اللحظة برحمة الله إن تاب هو وأقلع: فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَ رٗا لَّهُ [سورة التوبة، آية: 74].

وكان تصرُّف عمير هذا خيرًا وبركة على جلاس، فقد تاب وحسن إسلامه، وأخذ النبي بأذن عمير وقال له وهو يغمره بسناه: يا غلام، وفت أذنك، وصدَّقك ربك.

هذا هو عمير، وهذا غيضٌ من فيض عنه، وله مع أمير المؤمنين نبأ جليل، نعرف من خلاله عظمة هذا الصحابي في أبهى مشارقها.

كان أمير المؤمنين عمر -رضي الله عنه- يختار ولاته وكأنه يختار قدره! كان يختارهم من الزاهدين الورعين، والأمناء الصادقين، الذين يهربون من الإمارة والولاية، ولا يقبلونها إلا حين يكرههم عليها أمير المؤمنين، وكان على الرغم من بصيرته النافذة وخبرته المحيطة يتأنى طويلًا، ويدقق كثيرًا في اختيار ولاته ومعاونيه، وكان لا يفتأ يردد عبارته المأثورة:

«أريد رجلًا إذا كان في القوم، وليس أميرًا عليهم بدا وكأنه أميرهم، وإذا كان فيهم وهو عليهم أمير، بدا وكأنه واحد منهم. أريد واليًا، لا يميز نفسه على الناس في ملبس، ولا في مطعم، ولا في مسكن، يقيم فيهم الصلاة، ويقسم بينهم بالحق، ويحكم فيهم بالعدل، ولا يغلق بابه دون حوائجهم».

وفي ضوء هذه المعايير الصارمة، اختار ذات يوم عميرًا بن سعد واليًا على حمص، وحاول عمير أن يخلص منها وينجو، ولكن أمير المؤمنين ألزمه بها إلزامًا، وفرضها عليه فرضًا، واستخار الله، ومضى إلى واجبه وعمله. وفي حمص مضى عليه عام كامل، لم يصل إلى المدينة منه خراج، بل ولم يبلغ أمير المؤمنين -رضي الله عنه- منه كتاب، ونادى أمير المؤمنين كاتبه وقال له: اكتب إلى عمير ليأتي إلينا.

وذات يوم شهدت شوارع المدينة رجلًا أشعث أغبر، تغشاه وعثاء السفر، يكاد يقتلع خطاه من الأرض اقتلاعًا، من طول ما لاقى من عناء، وما بذل من جهد، على كتفه اليمنى جراب وقصعة، وعلى كتفه اليسرى قربة صغيرة فيها ماء، وإنه ليتوكأ على عصا، لا يؤدها حمله الضامر الوهنان! ودلف إلى مجلس عمر في خطى وئيدة، وقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين.

ويرد عمر السلام، ثم يسأله، وقد آلمه ما رآه عليه من جهد وإعياء: ما شأنك يا عمير؟

قال عمير: شأني ما ترى، ألست تراني صحيح البدن، طاهر الدم، معي الدنيا أجرُّها بقرنيها؟

قال عمر: وما معك؟

قال عمير: معي جرابي أحمل فيه زادي، وقصعتي آكل فيها، وإداوتي أحمل فيها وضوئي وشرابي، وعصاي أتوكأ عليها، وأجاهد بها عدوًّا إن عرض، فوالله ما الدنيا إلا تبع لمتاعي.

قال عمر: أجئت ماشيًا؟

قال عمير: نعم.

قال عمر: أولم تجد من يعطيك دابة تركبها؟

قال عمير: إنهم لم يفعلوا، وإني لم أسألهم.

قال عمر: فماذا عملت فيما عهدنا إليك به؟

قال عمير: أتيت البلد الذي بعثتني إليه، فجمعت صلحاء أهله، ووليتهم جباية فيئهم وأموالهم، حتى إذا جمعوها وضعوها في مواضعها، ولو بقي لك منها شيء لأتيتك به.

قال عمر: فما جئتنا بشيء؟

قال عمير: لا.

فصاح عمر وهو منبهر سعيد: جدِّدوا لعمير عهدًا.

وأجابه عمير في استغناء عظيم: تلك أيام قد خلت، لا عملت لك، ولا لأحد بعدك.

هذه لصورة ليست سيناريو نرسمه، وليست حوارًا نبتدعه، إنما هي واقعة تاريخية، شهدتها ذات يوم أرض المدينة عاصمة الإسلام في أيام خلده وعظمته. فأي طراز من الرجال كان أولئك الأفذاذ الشاهقون؟!

وكان عمر -رضي الله عنه- يتمنى ويقول: وددت لو أن لي رجالًا مثل عمير أستعين بهم على أعمال المسلمين.

ذلك أن عميرًا الذي وصفه أصحابه بحق بأنه نسيجٌ وحده كان قد تفوَّق على كل ضعف إنساني يسببه وجودنا المادي، وحياتنا الشائكة، ويوم كُتب على هذا القدِّيس العظيم أن يجتاز تجربة الولاية والحكم، لم يزدد ورعه بها إلا مضاء ونماء وتألقًا، ولقد رسم وهو أمير على حمص واجبات الحاكم المسلم في كلمات طالما كان يصدح بها في حشود المسلمين من فوق المنبر.

وها هي ذي: «إلا إن الإسلام حائط منيع، وباب وثيق، فحائط الإسلام العدل، وبابه الحق، فإذا نقض الحائط، وحطِّم الباب، استفتح الإسلام. ولا يزال الإسلام منيعًا ما اشتدَّ السلطان، وليست شدَّة السلطان قتلًا بالسيف، ولا ضربًا بالسوط، ولكن قضاء بالحق، وأخذًا بالعدل.

رحمَ اللهُ عميرًا، ورضي عنه، وعن صحابة النبي الكريم -عليه الصلاة والسلام-.

غزوةُ أحد

﴿مِّنَ   مُ   مِنِينَ رِجَا   صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ للَّهَ عَلَ   ﴾

[الأحزاب، آية: 23]

كانت غزوة أحُد في شوال من السنة الثالثة للهجرة، قيل إنها في منتصف الشهر، وقيل بل في اليوم 11 من نفس الشهر.

وهي الوقعة المشهورة التي أنزل الله -تعالى- قوله فيها:

وَإِ عَدَ تَ مِ أَ لِكَ تُبَوِّئُ ـمُ مِنِينَ مَقَٰعِدَ لِ قِتَا وَ للَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٢١ إِذ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُ أَن تَ شَلَا وَ للَّهُ وَلِيُّهُمَ وَعَلَى للَّهِ فَ يَتَوَكَّلِ ـمُ مِنُونَ ١٢٢ وَلَقَ نَصَرَكُمُ للَّهُ بِبَ وَأَنتُ أَذِلَّ فَ تَّقُواْ للَّهَ لَعَلَّكُ تَ كُرُونَ ١٢٣ إِذ تَقُولُ لِ ـمُ مِنِينَ أَلَن يَ فِيَكُ أَن يُمِدَّكُ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰ مِّنَ ـمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ١٢٤ بَلَ إِن تَ بِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَ تُوكُم مِّن فَ رِهِ هَٰذَا يُ دِ كُ رَبُّكُم بِخَ سَةِ ءَالَٰف مِّنَ ـمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ [سورة آل عمران، الآيات: 121-125].

وما بعدها إلى قوله سبحانه: مَّا كَانَ للَّهُ لِيَذَرَ ـمُ مِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُ عَلَ هِ حَتَّىٰ يَمِيزَ خَبِيثَ مِنَ لطَّيِّ وَمَا كَانَ للَّهُ لِيُ لِعَكُ عَلَى غَ بِ [سورة آل عمران، آية: 179].

وسنذكر القصة من بدايتها، بأنه لما أُصيب يوم بدر من كفار قريش أشخاص هم من أصحاب القليب الذي دفنوا فيه، ورجع بقيَّتم إلى مكة، رجع أبو سفيان بِعِيرِه، ومشى عبد الله بن أبي ربيعة، وعكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية في رجال من قريش، ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم يوم بدر، فكلَّموا أبا سفيان ومن كانت له تلك العير في تجارة قريش.

فقالوا: يا معشر قريش، إن محمدًا قد وتركم، وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه، لعلَّنا ندرك منه ثأرًا، ففعلوا.

وذكر بعض أهل العلم أنَّ الله -سبحانه وتعالى- أنزل فيهم: إِنَّ لَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَ وَٰلَهُ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ للَّ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَ هِ حَ رَةً ثُمَّ يُ لَبُو وَ لَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُ شَرُونَ ٣٦ [سورة الأنفال، آية: 36].

فاجتمعت قريش لحرب رسول الله - -، وجمعَ أبو سفيان أصحاب العير بأحابيشها، ومن أطاعهُ من قبائل كنانة وأهل تهامة، وكان منهم رجلٌ كنيته

«أبو عزة»، وهو عمرو بن عبد الله الجمحي، الذي قد منَّ عليه رسول الله يوم بدر، وكان فقيرًا ذا عيال وحاجة، وكان في الأسارى.

فذهبَ إليه صفوانُ بن أميَّة ودارَ بينهما الحديث:

قال صفوان: يا أبا عزة، إنك امرؤ شاعر، فأعنا بلسانك واخرج معنا.

فقال: إن محمدًا قد منَّ علي، فلا أريد أن أظاهر عليه.

قال: بلى، فأعنَّا بنفسك، فلك الله إن رجعت أن أغنيك، وإن قُتِلْتَ أن أجعل بناتك مع بناتي، يصيبهن ما أصابهن من عسرٍ ويسر.

فخرج أبو عزة يسير في تهامة، يدعو بني كنانة ويقول:

أيا بني عبد مناة الرزام	**أنتم حماة وأبوكمُ حامِ**
لا يعدوني نصركم بعد العام	**لا تُسْلِمُوني لا يَحلُّ إسلامي**

وخرج رجل اسمه نافع بن عبد مناف بن وهب بن حذافة بن جمح إلى بني مالك بن كنانة يحرضهم، ويقول:

يا مال مال الحسب المقدم	**أنشد ذا القربى وذا التذمم**
من كان ذا رحم ومن لم يرحم	**الحلف وسط البلد المحرم**
عند حطيم الكعبة المعظم	

ودعا جبير بن مطعم غلامًا له حبشيًّا يقال له: وحشي، يقذف بحربة له قذف الحبشة قلَّما يُخطئ بها، فقال له: اخرج مع الناس، فإن أنت قتلت حمزة -عم محمد- الذي قتل عمِّي طعيمة بن عدي، فأنت عتيق.

فخرجت قريش بحدها، وحديدها، وجدها، وأحابيشها، ومن تابعها من بني كنانة وأهل تهامة، وخرجوا معهم بالظعن الْتماس الحفيظة، وألا يفروا، وخرج أبو سفيان صخر بن حرب، وهو قائد الناس ومعه زوجته هند بنت عتبة بن ربيعة، وخرج عكرمة بن أبي جهل بزوجته ابنة عمه أم حكيم بنت الحارث بن هشام بن المغيرة.

وخرج عمه الحارث بن هشام بزوجته فاطمة بنت الوليد بن المغيرة، وخرج صفوان بن أمية ببرزة بنت مسعود بن عمرو بن عمير الثقفية، وخرج عمرو بن العاص بريطة بنت منبه بن الحجاج، وغيرهم كثير ممن خرج بزوجته.

وكان وحشيٌّ في الطريق كلَّما مرَّ بهند بنت عتبة أو مرَّت به تقول: وِيهًا أبا دسمة اشف واشتفِ. يعني تحرضه على قتل حمزة بن عبد المطلب.

فأقبلوا حتى نزلوا بعينين بجبل ببطن السَّبخة من قناة على شفير الوادي، مقابل المدينة، فلما سمع بهم رسول الله - - والمسلمون، قال لهم: قد رأيتُ والله خيرًا، رأيتُ بقرًا تذبح، ورأيت في ذباب سيفي ثَلْمًا، ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة فأوَّلتها المدينة.

وهذا الحديث رواه البخاري ومسلم جميعًا عن أبي كريب، عن أبي أسامة، عن بريد بن عبد الله بن أبي بردة، عن أبي موسى الأشعري، عن النبي - - قال: رأيتُ في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرضٍ بها نخل، فذهب وَهْلِي إلى أنها اليمامة أو هجر، فإذا هي المدينة يثرب، ورأيت في رؤياي هذه أني هززت سيفًا فانقطع صدره فإذا هو ما أُصيب من المؤمنين يوم أحد، ثم هززته أخرى فعاد أحسن ما كان، فإذا هو ما جاء الله به من الفتح واجتماع المؤمنين، ورأيتُ فيها أيضًا بقرًا والله خير، فإذا هُمُ النفر من المؤمنين يوم أحد، وإذا الخير ما جاء الله به من الخير وثواب الصدق الذي أتانا بعد يوم بدر.

قال ابن عباس: إن رسول الله - - لما جاءه المشركون يوم أحد، كان رأيه أن يُقيم بالمدينة فيقاتلهم فيها، فقالَ له ناسٌ لم يكونوا شهدوا بدرًا: نخرج يا رسول الله إليهم نقاتلهم بأحد، ورجوا أن يصيبهم من الفضيلة ما أصاب أهل بدر، فما زالوا برسول الله - - حتى لبس أداته، ثم ندموا وقالوا: يا رسول الله أقم فالرأي رأيك.

فقال لهم: ما ينبغي لنبي أن يضع أداته بعدما لبسها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه.

وكان النبيُّ -عليه الصلاة والسلام- قد قال لهم يومئذ قبل أن يلبس الأداة: إني رأيت أني في درع حصينة فأولتها المدينة، وأني مردفٌ كبشًا وأولته كبش الكتيبة، ورأيت أن سيفي ذا الفقار فَلَّ فأوَّلته فَلًّا فيكم، ورأيت بقرًا يُذبح فبقر والله خير.

وروى البيهقي عن عدة رواةٍ عن أنس مرفوعًا قال: رأيتُ فيما يرى النائم كأني مردف كبشًا وكأن ضُبَّة سيفي انكسرت، فأولت أني أقتل كبش القوم، وأولت كَسْر ضُبةِ سيفي قَتْلَ رجلٍ من عترتي. فقُتِلَ حمزة، وقَتَلَ رسول الله - - طلحة الذي كان صاحب لواء المشركين.

ويقول بعضهم: كان الذي رأى النبيَّ - - بسيفه في الرؤيا تفسيره هو الذي أصاب وجهه، فإن العدو أصاب وجهه يومئذ، وقصموا رباعيته، وخرقوا شفته، ويزعمون أن الذي رماه عتبة بن أبي وقاص، وكان تأويل البقر مَن قُتِلَ من المسلمين يومئذ.

وقال النبيُّ: أولت الكبش أنه كبش كتيبة العدو يقتله الله، وأولت الدرع الحصينة المدينة، فامكثوا واجعلوا الذراري في الأطام، فإن دخل علينا القوم في الأزقة قاتلناهم.

ورُمُوا من فوق البيوت، وكانوا قد سكُّوا أزقة المدينة بالبنيان حتى صارت كالحصن، فقال الذين لم يشهدوا بدرًا: كنا نتمنى هذا اليوم وندعو الله، فقد ساقه الله إلينا وقرَّب المسير.

قال بعض أهل العِلم لما قَصَّ رسول الله - - رؤياه على أصحابه قال لهم: إن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا، فإن أقاموا، أقاموا بِشَرِّ مقام، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها، وقد كان رأي عبد الله بن أُبي بن سلول مع رأي رسول الله - - في ألا يخرج إليهم.

فقال رجال من المسلمين ممن أكرمهم الله بالشهادة لاحقًا يوم أحد، وغيرهم ممن كان قد فاتته غزوة بدر: يا رسول الله، اخرج بنا إلى أعدائنا، لا يرون أنا جَبُنَّا عنهم وضعفنا. فقال عبد الله بن أُبي: يا رسول الله، لا تخرج إليهم، فوالله ما خرجْنا منها إلى عدوٍ قط إلا أصاب منا، ولا دخلَها علينا إلا أصبنا منه.

وقال رجلٌ من الأنصار: متى نقاتلهم يا رسول الله إذا لم نقاتلهم عند شعبنا؟

وقال رجالٌ آخرون: ماذا نمنع إذا لم تُمنَعِ الحرب بِرَوْع؟

وقال رجالٌ قولًا صَدَقوا به ومضوا عليه، منهم: حمزة بن عبد المطلب الذي قال: والذي أنزل عليك الكتاب لنجادلنَّهم.

وقال نعيم بن مالك بن ثعلبة: يا نبي الله، لا تحرمنا الجنة، فوالذي نفسي بيده لأدخلنها.

فقال له رسول الله: بم.

قال: بأنِّي أحب الله ورسوله، ولا أفرُّ يوم الزحف.

فقال له رسول الله: صدقت.

واستُشهد يومئذ.

وأبى كثير من الناس إلا الخروج إلى العدو، ولم يتناهوا إلى قول رسول الله - - ورأيه، ولو رضوا بالذي أمرهم لكان ذلك، ولكنْ غلب القضاء والقدر، وعامة من أشار عليه بالخروج رجال لم يشهدوا بدرًا، قد علموا الذي سبق لأصحاب بدر من الفضيلة وأرادوا أن يكونوا مثلهم.

فلما صلى رسول الله - - الجمعة، وعظ الناس وذكَّرهم، وأمرهم بالجد والجهاد، ثم انصرف من خطبته وصلاته، فدعا بلأْمته فلبسها، ثم أذن في الناس بالخروج.

فلما رأى ذلك رجالٌ من ذوي الرأي قالوا: أمرنا رسول الله - - أن نمكث بالمدينة، وهو أعلم بالله وما يريد، ويأتيه الوحي من السماء.

فقالوا: يا رسول الله، امكث كما أمرتنا، فقال: ما ينبغي لنبيٍّ إذا أخذ لأْمة الحرب، وأذن بالخروج إلى العدو أن يرجع حتى يقاتل، وقد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم إلا الخروج، فعليكم بتقوى الله والصبر عند البأس إذا لقيتم العدو، وانظروا ماذا أمركم الله به فافعلوا.

فخرج رسول الله - - والمسلمون، فسلكوا على البدائع وهم ألف رجل، والمشركون ثلاثة آلاف، فمضى رسول الله - - حتى نزل بأحد، ورجع عنه عبد الله بن أُبي بن سلول في ثلاثمائة، فبقي رسول الله - - في سبعمائة.

قال البيهقي: إنَّ هذا هو المشهور عند أهل المغازي أنهم بقوا في سبعمائة مقاتل.

سار النبيُّ بالجيش، حتى إذا كان بالشوط بين المدينة وأحد، انخذلَ عنه عبد الله بن أُبي بثُلث الناس، وقال: أطاعهم وعصاني، ما ندري علامَ نقتل أنفسنا ههنا أيها الناس.

فرجع بمن اتبعه من قومه من أهل النفاق والريب، فلحقهم عبد الله بن عمرو بن حرام السلمي، وهو والد جابر بن عبد الله، فقال لهم: يا قوم، أذكركم الله ألا تخذلوا قومكم ونبيكم، عند ما حضر من عدوهم.

فقالوا له: لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلَمْناكم، ولكنا لا نرى أن يكون قتالًا.

يقصدون إننا نتوقع ألا تقوم الحرب، لذلك سنعود.

فلما استعصوا عليه وأبوا إلا الانصراف قال: أبعدكم الله أعداء الله، فسيُغني الله عنكم نبيَّه.

وهؤلاء القوم هم المرادون بقوله تعالى: وَقِيلَ لَهُ تَعَالَ ا قَٰتِلُوا فِي سَبِيلِ للَّهِ أَوِ فَعُو قَالُوا لَ نَ لَمُ قِتَالًا لَّ تَّبَ نَٰكُ هُ لِل كُ رِ يَ مَئِذٍ أَق رَبُ مِ هُ لِ إِيمَٰ يَقُولُونَ بِأَ وَٰهِهِم مَّا لَ سَ فِي قُلُوبِهِ وَ للَّهُ أَ لَمُ بِمَا يَ تُمُونَ ١٦٧ [سورة آل عمران، آية: 167].

في تلك الأثناء استأذن الأنصارُ رسول الله - - في الاستعانة بحلفائهم من يهود المدينة، فقال لهم: لا حاجة لنا فيهم.

ومضى رسول الله - - حتى سلك في حرة بني حارثة، فقال النبي - - لأصحابه: مَن رجلٌ يَخرجُ بنا على القوم من كثب (أي من قريب) من طريق لا يمر بنا عليهم؟

فقال أبو خيثمة وهو من بني حارثة بن الحارث: أنا يا رسول الله.

فنَفَذَ به في حرَّة بني حارثة وبين أموالهم، حتى سلك به في مال رجلٍ اسمه «مربعُ بن قيظي»، وكان رجلًا منافقًا ضرير البصر، فلما سمع حس رسول الله ومن معه من المسلمين، قام يحثي في وجوههم التراب، ويقول: إن كنتَ رسول الله فإني لا أحل لك أن تدخل في حائطي. (الحائط هو البستان أو المزرعة).

وقد ذكر بعض أهل العِلم أنَّ الرجل أخذ حفنة من التراب في يده، ثم قال: والله لو أعلم أني لا أصيب بها غيرك يا محمد لضربت بها وجهك. فابتدَرَه القوم ليقتلوه، فقال رسول الله - -: لا تقتلوه، فهذا الأعمى أعمى القلب، أعمى البصر.

وقبل أن ينهى النبيُّ عن قتل الرجل، ذهبَ إليه سعد بن زيد، من بني عبد الأشهل، فضربه بالقوس في رأسه فشجَّه، ومضى رسول الله - - حتى نزل الشعب من أحد في عدوة الوادي وفي الجبل، وجعل ظهره وعسكره إلى أحد، وقال: لا يقاتلنَّ أحد حتى آمره بالقتال.

وتعبأ رسول الله - - للقتال وهو في سبعمائة رجل، وأمر على الرماة يومئذ عبد الله بن جبير، وهو مُعَلَّمٌ يومئذ بثيابٍ بِيض، والرماة خمسون رجلًا، فقال: انضح الخيل عنا بالنبل، لا يأتونا من خلفنا إن كانت لنا أو علينا، فاثبت مكانك لا نؤتَيَنَّ من قِبَلِك.

وظاهَرَ رسول الله - - بين درعين، أي لبس درعًا فوق درع، ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير من بني عبد الدار.

وقد رد رسول الله - - جماعة من الغلمان يوم أحد فلم يمكنهم من حضور الحرب لصغرهم، منهم: عبد الله بن عمر، كما ثبت في الصحيحين أنه قال: عُرِضْتُ على النبي - - يوم أحد فلم يُجِزْني، وعُرِضْتُ عليه يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة فأجازني.

وكذلك رد يومئذ أسامة بن زيد، وزيد بن ثابت، والبراء بن عازب، وأسيد بن ظهير، وعرابة بن أوس بن قيظي. ومنهم: ابن سعيد بن خيثمة، ولكنه أجازهم كلهم يوم الخندق.

وكما قلنا، تعبَّأت قريش في ثلاثة آلاف ومعهم مائتا فرَسٍ قد جنبوها، فجعلوا على ميمنة الخيل خالدًا بن الوليد، وعلى ميسرتها عكرمة بن أبي جهل بن هشام، وكان لواء الجيش مع عثمان بن طلحة، ولم يكن مع المسلمين فرسٌ واحدة، واستعمل النبيُّ على المدينة عبد الله بن أم مكتوم.

في معسكر المسلمين قال رسول الله: مَن يأخذ هذا السيف بحقه؟

فقام إليه رجالٌ فأمسكه النبيُّ عنهم، حتى قام إليه «أبو دجانة» سمَّاك بن خرشة من بني ساعدة فقال: وما حقه يا رسول الله؟

قال: أنْ تضرب به في العدو حتى ينحني.

قال: أنا آخذه يا رسول الله بحقه.

فأعطاه إياه، فأخذه ففلق به هامَ المشركين.

وذُكر أن رسول الله - - لمَّا عرضه -أي السيف- طلبه منه عمر، فأعرَضَ عنه، ثم طلبه منه الزبير فأعرض عنه، فوجدا في أنفسهما من ذلك، ثم عرضه الثالثة فطلبه أبو دجانة فدفعه إليه، فأعطى السيف حقه.

وكان أبو دجانة رجلًا شجاعًا يختالُ عند الحرب، وكان له عصابةٌ حمراء يُعرف بها عند الحرب يعتصب بها، فيُعلَمُ أنه سيقاتل. فلما أخذ السيف من يد رسول الله - - أخرج عصابته تلك فاعتصب بها، ثم صارَ يتبختر بين الصفين. فقال رسول الله - - حين رأى أبا دجانة يتبختر: إنها لمشيةٌ يُبغضها اللهُ إلا في مثل هذا الموطن.

أما أبو سفيان، فقد قال لأصحاب اللواء في جيشه وهم من بني عبد الدار ليحرِّضهم على القتال: يا بني عبد الدار، قد وَلِيتُمْ لواءنا يوم بدر، فأصابنا ما قد رأيتم، وإنما يُؤتى الناسُ من قِبَلِ راياتهم، إذا زالت زالوا، فإما أن تكفُّونا لواءَنا، وإما أن تخلُّوا بيننا وبينه، فنكفيكموه.

فهمُّوا به، وتواعدوه وقالوا: نحن نُسلِّمُ إليك لواءنا؟ ستعلمُ غدًا إذا التقينا كيف نصنع.

وذلك بالضبط الذي أرادهُ أبو سفيان.

فلما الْتقى الناس ودَنَا بعضهم من بعض، قامت هند بنت عتبة في النسوة اللاتي معها، وأخذْن الدفوف يضرِبْنَ بها خلْف الرجال، ويحرِّضن على القتال، فقالت هند فيما تقول:

وِيهًا بني عبد الدار وِيهًا حُماةَ الأديار

ضربًا بكلِّ بتار

وتقول أيضًا:

إن تُقبلوا نعانق ونفرش النمارق

أو تدبروا نفارق فراق غير وامق

فأقبلَ الناسُ حتى حميت الحرب، وقاتل أبو دجانة حتى أمعن في الناس.

وفي رواية أن الزبير بن العوام قال: وجدتُ في نفسي حين سألتُ رسول الله - - السيف فمَنَعَنِيه، وأعطاهُ أبا دجانة، وقلت: أنا ابنُ صفية -عمَّته- ومن قريش، وقد قمتُ إليه وسألتُه إياهُ قبله، فأعطاه أبا دجانة وتركني، والله لأنظرنَّ ما يصنع، فاتَّبَعْتُه فأخرَجَ عصابةً له حمراء فعَصَبَ بها رأسه، فقالت الأنصار: أخرج أبو دجانة عُصابة الموت، وهكذا كانت تقول له إذا تعصَّبَ، فخرج وهو يقول:

أنا الذي عاهدني خليلي	**ونحن بالسفح لدى النخيل**
أن لا أقوم الدهر في الكيول	**أضرب بسيف الله والرسول**

(والكيول هي مؤخرة الجيش)

المهم أنَّ أبا دجانة لم يلقَ أحدًا إلا قتله، وكان في المشركين رجلٌ لا يَدَعُ جريحًا إلا ذفف عليه (أي أجهز عليه وقتله)، فجعلَ كلٌّ منهما يدنو من صاحبه، فدعوتُ الله (الزبير بن العوام دعا) أن يَجمع بينهما (يعني أن يجمع اللهُ بين أبي دجانة والمشرك الذي يقتل الجرحى)، فالتقيا فاختلفا ضربتين، فضرب المشرك أبا دجانة فاتَّقاهُ أبو دجانة بدُرقته، فعضيت بسيفه (أي علِقَتْ)، وضربه أبو دجانة فقتله، ثم رأيته قد حمل السيف على مفرق رأس هند بنت عتبة، ثم عدَلَ السيف عنها.

وفي ذلك يقول أبو دجانة: رأيت إنسانًا يَحْمِسُ الناس حمسًا شديدًا فصمدتُ له، فلما حملْتُ عليه السيف وَلْولَ، فإذا امرأةٌ فأكرمتُ سيف رسول الله أن أضربَ به امرأة.

وزعموا أن كعب بن مالك قال: كنتُ فيمن خرج من المسلمين، فلما رأيتُ مثل المشركين بقتلى المسلمين، قمتُ فتجاورت، فإذا رجلٌ من المشركين جَمَعَ اللأْمَةَ، يَجوزُ المسلمين وهو يقول: استوسِقوا كما استوسقت جُزُرُ الغَنَم. وإذا رجلٌ من المسلمين ينتظره وعليه لأْمَتُه، فمضيتُ حتى كنتُ من ورائه، ثم قمتُ أقدِّرُ المسلم والكافر ببصري، فإذا الكافر أفضلهما عُدةً وهيأة. فلم أزل أنتظرهما حتى الْتقيا، فضربَ المسلمُ الكافرَ على حبل عاتقه ضربةً

بالسيف فبلغت وركه، وتفرَّق الكافرُ فرقتين، ثم كشف المسلم عن وجهه، وقال: كيف ترى يا كعب؟ أنا أبو دجانة.

وفي هذه المعركة قُتل حمزة بن عبد المطلب، وقتله وحشيٌّ -رضي الله عنه- وذلكَ قبل أن يُسلم، وقصة قتله جاءت على لسان وحشيٍّ نفسه، إذ إنَّ رجلًا اسمه جعفر بن عمرو بن أمية الضمري قد خرج هو وعبيد الله بن عدي بن الخيار في زمان معاوية، فمرُّوا بحمص، وكان وحشيٌّ مولى جبير قد سكنها، وأقام بها، فذهبوا إليه ليسألوهُ عن مقتل حمزة، فسألوا عنه حتى وجدوه في فناء داره فجلسوا إليه، وقالوا: جئناك لتحدثنا عن قتل حمزة، كيف قتلته؟

فقال: أما إني سأحدثكما كما حدثت رسول الله حين سألني عن ذلك: كنت غلامًا لجبير بن مطعم، وكان عمه طعيمة بن عدي قد أُصيب يوم بدر، فلما سارت قريش إلى أحد، قال لي جبير: إن قتلت حمزة عمَّ محمدٍ بعمِّي فأنت عتيق.

فخرجتُ مع الناس وكنت رجلًا حبشيًّا أقذف بالحربة قذف الحبشة قلَّ ما أخطئ بها شيئًا، فلما التقى الناس خرجت أنظر حمزة، وأتبصَّره حتى رأيته في عَرَض الناس كأنه الجمل الأورق، يهدُّ الناس بسيفه هدًّا ما يقوم له شيء، فوالله إني لأتهيأ له أريده وأستتر منه بشجرة، أو بحجر ليدنو مني، إذ تقدمني إليه سباع بن عبد العزى.

فلما رآه حمزة قال لهُ: هلمَّ إليَّ، فضربه ضربةً كأنما أخطأ رأسه، قال: وهززت حربتي حتى إذا رضيت منها، دفعتها عليه فوقعت في ثنيته، حتى خرجت من بين رجليه، وذهب لينوء نحوي فغلَبَ وتركتُهُ وإياها حتى مات، ثم أتيتُه فأخذت حربتي، ثم رجعتُ إلى العسكر وقعدت فيه، ولم يكن لي بغيره حاجة، إنما قتلته لأُعتَق.

فلمَّا قدمتُ مكةَ عُتِقتُ، ثمَّ أقمت حتى إذا افتتح رسول الله مكة، هربتُ إلى الطائف فمكثتُ بها، فلما خرج وفد الطائف إلى رسول الله ليُسلِمُوا تعيَّتْ عليَّ المذاهب فقلت: ألحقُ بالشام أو باليمن أو ببعض البلاد، فوالله إني لفي ذلك من همي إذ قال لي رجل: ويحك إنه والله لا يقتل أحدًا من الناس دخل في دينه وشهد شهادة الحق.

فلما قال لي ذلك خرجتُ حتى قدمتُ على رسول الله المدينة، فلم يَرُعهُ إلا بي قائمًا على رأسه أشهد شهادة الحق، فلما رآني قال لي: أوحشيٌّ أنت؟

قلتُ: نعم يا رسول الله.

قال: اقعد فحدثني كيف قتلت حمزة.

فحدَّثتُه كما حدثتُكما، فلمَّا فرغتُ من حديثي قال: ويحَكَ غيِّب عني وجهك فلا أرينَّك.

فكنتُ أتنكَّبُ برسولِ الله حيث كان لئلا يراني حتى قبضه الله -عز وجل-.

فلما خرج المسلمون إلى مسيلمة الكذاب صاحب اليمامة خرجت معهم وأخذت حربتي التي قتلت بها حمزة، فلما التقى الناس ورأيت مسيلمة قائمًا وبيده السيف وما أعرفه، فتهيأتُ له وتهيأ له رجل من الأنصار من الناحية الأخرى كلانا يريده، فهززت حربتي حتى إذا رضيت منها دفعتُها عليه فوقعت فيه.

وشدَّ عليه الأنصاريُّ بالسيف، فربك أعلم أيُّنا قتله، فإن كنتُ قتلتُه فقد قتلتُ خير الناس بعد رسول الله، وقتلتُ شرَّ الناس.

نعودُ للمعركةِ بعدَ قتْلِ حمزة:

اشتدَّ القتال، وقاتل مصعب بن عمير دون رسول الله حتى قُتِل، وكان الذي قتله ابن قمئة الليثي، وهو يظنُّ أنه رسول الله، فرجع إلى قريش فقال: قتلت محمدًا.

وقال سعيد بن المسيب إن الذي قتل مصعبًا هو أُبيُّ بن خلف، فالله أعلم.

فلما قُتِلَ مصعب بن عمير أعطى رسول الله - - اللواء لعليِّ بن أبي طالب.

وقد ذُكِرَ أنَّ اللواء كان أولًا مع علي بن أبي طالب، فلما رأى رسول الله لواء المشركين مع عبد الدار قال: نحن أحقُّ بالوفاء منهم، وأخذ اللواء من عليِّ بن أبي طالب، فدفعه إلى مصعب بن عمير، فلما قُتِلَ مصعب أعطى اللواء لعليِّ بن أبي طالب.

وقال البخاري عن عدة رواة: إنّ عبد الرحمن بن عوف أتى مرةً بطعام وكان صائمًا، فقال: قُتل مصعب بن عمير، وهو خيرٌ مني، كُفِّنَ في بردة إن

غطِّي رأسه بَدَتْ رجلاه، وإن غُطِّي رجلاه بدا رأسه. وقُتِلَ حمزة، وهو خيرٌ مني، ثم بُسِطَ لنا من الدنيا ما بُسِط، أو قال: «أُعطِينا من الدنيا ما أُعطينا»، وقد خشينا أن تكون حسناتنا عَجِلَت لنا. ثم بكي حتى برد الطعام.

ولما اشتد القتال يوم أحد جلسَ رسول الله تحت راية الأنصار، وأرسل إلى عليٍّ أن قدِّم الراية، فقدَّم عليٌّ وهو يقول: أنا أبو القصم. فناداه أبو سعد بن أبي طلحة وهو صاحب لواء المشركين: هل لك يا أبا القصم في البراز من حاجة؟

قال: نعم. فبرزا بين الصفين فاختلفا ضربتين، فضربه عليٌّ فصرعه، ثم انصرف ولم يُجهز عليه.

فقال له بعض أصحابه: أفلا أجهزت عليه؟ فقال: إنه استقبلني بعورته، فعطفتني عليه الرحم، وعرفت أنَّ الله قد قتله. وقد فعل ذلك علي -رضي الله عنه- يوم صفين مع بُسر بن أبي أرطأة، لما حملَ عليه ليقتله أبدا له عورته فرجع عنه.

وذكر يونس عن ابن إسحاق: أن طلحة بن أبي طلحة العبدري (أي من بني عبد الدار) حامل لواء المشركين يومئذ، دعا إلى البراز فأحجم عنه الناس، فبرز إليه الزبير بن العوام، فوثب حتى صار معه على جَمَلِه، ثم اقتحم به الأرض فألقاهُ عنه وذبحه بسيفه، فأثنى عليه رسول الله - - قال: إن لكلِّ نبيٍ حواريًّا وحواريي الزبير.

وقال: لو لم يبرز إليه لبرزت أنا إليه، لمَّا رأيتُ من إحجام الناس عنه.

وقيل بل إنَّ من قتل أبا سعد بن أبي طلحة هو سعد بن أبي وقاص، وقاتل عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح، فقتل نافع بن أبي طلحة وأخاه الجلاس وكلاهما يُشعره سهمًا، فيأتي أمه سلافة فيضع رأسه في حجرها فتقول: يا بنيَّ من أصابك؟

فيقول: سمعت رجلًا حين رماني يقول: خذها وأنا ابن أبي الأقلح، فنذَرَتْ إنْ أمكنها الله من رأس عاصم أن تشرب فيه الخمر، وكان عاصم قد عاهد الله ألا يمسَّ مشركًا أبدًا، ولا يمسه، فحماهُ الله من ذلك حيًّا، وحماهُ من ذلك ميتًا.

إذ بعد عام من غزوة أحد أرسل النبي - - ستة من الصحابة إلى قبيلة عضل ليعلموا الناس الإسلام، وكان من بين الستة الصحابي عاصم بن ثابت، ولكن

وهم في طريقهم إلى القبيلة بالقرب من مكان يسمى الرجيع، غَدَرَ أهل قبيلة عضل بوفد النبي واستشهد الستة بما فيهم عاصم بن ثابت -رضي الله عنه-، وبعد أن قتلوهم تذكروا ما نذرت به سلافة فهمُّوا إلى قطع رأس عاصم بن ثابت ليأخذوها إليها، ولكن الله أرسل نحلًا غطى جثمان عاصم، ولم ييأس المشركون وقالوا نأتي ليلًا حتى يهدأ النحل ونأخذ الرأس، ولكن في الليل أرسل الله مطرًا غزيرًا حتى صار سيلًا وحمل الجثمان بعيدًا.

وفي المعركة التقى حنظلة بن أبي عامر، واسمه عمرو، ويقال: عبد عمرو بن صيفي، وكان يقال لأبي عامر في الجاهلية: الراهب، لكثرة عبادته، فسماه رسول الله الفاسق، لأنهُ خالف الحق وأهله، وهرب من المدينة هربًا من الإسلام ومخالفة للرسول -عليه السلام-، وقد خرج إلى مكة مباعدًا لرسول الله ومعه خمسون غلامًا من الأوس، وبعض الناس يقول: كانوا خمسة عشر.

وكان يَعِدُ قريشًا أن لو قد لقيَ قومه لم يتخلَّف عليه منهم رجلان (يقصد أنهُ مُطاعٌ في قومهِ فلن يخالف أحدٌ أمره) فلما التقى الناس كان أول من لقيهم أبو عامر في الأحابيش، وعبدان أهل مكة، فنادى: يا معشر الأوس، أنا أبو عامر.

قالوا: فلا أنعم الله بك عينًا يا فاسق.

وكان يسمى في الجاهلية الراهب، فسماه رسول الله الفاسق، فلما سمع ردهم عليه قال: لقد أصاب قومي بعدي شر.

ثم قاتلهم قتالًا شديدًا، ثم أرضخهم بالحجارة.

وحنظلة الذي يعرف بحنظلة الغسيل، أو غسِّيل الملائكة، التقى هو وأبو سفيان صخر بن حرب، فلما علاه حنظلة رآه شدَّاد بن الأوس، وهو الذي يقال له ابن شعوب، فضربه شدَّاد فقتله، فقال رسول الله - -: إن صاحبكم لتغسله الملائكة فاسألوا أهله ما شأنه.

فسُئلت صاحبته (أي زوجته) واسمها جميلة بنت أُبي بن سلول، وكانت عروسًا عليه تلك الليلة. فقالت: خرج وهو جُنُب لم يغتسل حين سمع الهاتفة (أي منادي رسول الله للحرب)، فقال رسول الله - -: كذلك غسلته الملائكة.

وقيل إنَّ أباه (أبو حنظلة) ضرَبَ برجله في صدر ابنه حنظلة وهو ميت، وقال: ذنبان أصبتَهُما ولقد نهيتُك عن مصرعك هذا، ولقد والله كنتَ وصولًا

للرحم، بَرًّا بالوالد.

وقال ابن شعوب الذي قتل حنظلة في ذلك شِعرًا:

ولولا دفاعي يا بن حرب ومشهدي	**لألفيتَ يوم النعفِ غيرَ مجيب**
ولولا مكري المهر بالنعف فرفرت	**عليه ضباع أو ضراء كليب**

وقال أبو سفيان:

ولو شئتُ نجتني كُمَيتَ طمرة	**ولم أحملِ النعماء لابن شعوب**
وما زال مهري مزجَرَ الكلب منهم	**لدن غدوةٍ حتى دنت لغروب**
أقاتلهم وأدعي يا لغالب	**وأدفعهم عني بركن صليب**
فبكِّي ولا ترعي مقالة عاذل	**ولا تسأمي من عَبرة ونحيب**
أباكِ وإخوانا له قد تتابعوا	**وحقا لهم من عَبرة بنصيب**
وسَلي الذي قد كان في النفس أنني	**قتلت من النجار كل نجيب**
ومن هاشم قرمًا كريمًا ومصعبًا	**وكان لدى الهيجاء غير هيوب**
فلو أنني لم أشفِ نفسي منهم	**لكانت شجى في القلب ذات ندوب**
فآبوا وقد أوْدى الجلابيب منهمُ	**بهم خدبٌ من مُغبطٍ وكئيب**
أصابهمُ من لم يكن لدِمائهم	**كفاء ولا في خطةٍ بضريب**

فأجابه حسان بن ثابت:

ذكرت القروم الصِّيدَ من آل هاشم	**ولست لزورٍ قلته بمصيبِ**
أتعجبُ أن أقصدت حمزةَ منهم	**نجيبًا وقد سمَّيته بنجيب**

ألم يقتلوا عَمرًا وعتبة وابنه	**وشيبة والحجاج وابن حبيب**
غداة دعا العاصي عليا فراعَه	**بضربةِ عَضْبٍ بَلَّهُ بخضيب**

ثم أنزل الله نصره على المسلمين، وصدَقَهُم وعده، فحَسُّوهم بالسيوف حتى كشفوهم عن العسكر، وكانت الهزيمة لا شك فيها.

وفي ذلك قال الزبير: والله لقد رأيتُني أنظرُ إلى خدَمِ هند بنت عتبة وصواحبها مشمِّراتٍ هوارب، ما دون أخْذِهِنَّ قليلٌ ولا كثير، إذ مالت الرماة على العسكر حين كشفنا القوم عنه، وخلوا ظهورنا للخيل، فأُتينا من خلفنا، وصرخ صارخ: ألا إنَّ محمدًا قد قُتِل. فانكفأنا وانكفأ القوم علينا، بعد أنْ أَصبْنا أصحاب اللواء حتى ما يدنو منه أحد منهم.

وهذا الذي صرخَ هو إبليس عليه لعنة الله كما قال بعض أهل العِلم.

وكان لواء المشركين لم يزل صريعًا حتى أخذته امرأةٌ اسمها عَمْرة بنت علقمة الحارثية، فرفعته لقريش فلاثوا به، وكان اللواء مع صؤاب، وهو غلامٌ لبني أبي طلحة حبشي، وكان آخر من أخذه منهم فقاتل بهِ حتى قُطِعَتْ يداه، ثم بركَ عليه، فأخذ اللواء بصدره وعنقه، حتى قُتِلَ عليهِ وهو يقول: اللهمَّ هل أُعْذِرْتُ. فقال حسان بن ثابت في ذلك:

فَخَرْتم باللواءِ وشرُّ فخرٍ	**لواءَ حين رُدَّ إلى صواب**
جَعَلتُم فخركم فيهِ لعبدٍ	**وإلام مَن يطا عُفْرَ التراب**
ظننتم، والسفيهُ له ظنونٌ	**وما إنْ ذاك من أمرِ الصواب**
بأنَّ جلادنا يوم التقينا	**بمكةَ بَيْعُكُم حُـمْرَ العِياب**
أقرَّ العينَ أن عُصبتْ يداه	**وما أن تُعصبَانِ على خِضَاب**

وقال حسان بن ثابت -رضيَ اللهُ عنهُ- أيضًا في حادثةِ رَفْعِ عمرة بنت علقمة اللواء لهم:

إذا عضلٌ سيقت إلينا كأنها جدايةُ شركٍ مُعْلَمات الحواجب
أقمنا لهم طعنًا مبيرًا منكِّلًا وحزْناهُم الضرب من كل جانب
فلولا لواءُ الحارثيةِ أصبحوا يُباعونَ في الأسواق بَيْعَ الجلائب

وانكشف المسلمون حيث نزل الرماة من الجبل، وأصاب منهم العدو، وكان يوم بلاء وتمحيص، أكرم الله فيه من أكرم بالشهادة حتى خَلَصَ العدوُّ إلى رسول الله - - فذبَّ بالحجارة حتى وقع لشقه فأصيبت رباعيته، وشُج في وجهه، وكلُمَت شفته، وكان الذي أصابه عتبة بن أبي وقاص.

وقال أنس بن مالك: كُسرت رباعية النبي يوم أحد وشُجَّ في وجهه، فجعل يمسح الدم ويقول: كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى الله؟ فأنزل الله: لَ سَ لَكَ مِنَ أَ رِ شَي ءٌ أَ يَتُوبَ عَلَ هِ أَ يُعَذِّبَهُ فَإِنَّهُ ظَٰلِمُونَ ١٢٨ [سورة آل عمران، آية: 128].

قال ابن جرير في (تاريخه): أتى ابن قمئة الحارثي فرمى رسول الله - - بحجر فكسر أنفه ورباعيته، وشجه في وجهه فأثقله، وتفرق عنه أصحابه، ودخل بعضهم المدينة، وانطلق طائفة فوق الجبل إلى الصخرة، وجعل رسول الله يدعو الناس ويقول: إليَّ عباد الله، إليَّ عباد الله.

وقيل بل إنَّ عتبة بن أبي وقاص رمى رسول الله فكسر رباعيته اليمنى السفلى، وجرح شفته السفلى، وإن عبد الله بن شهاب الزهري شجه في جبهته، وإن عبد الله بن قمئة جرح وجنته.

فدخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته، ووقع رسول الله - - في حفرة من الحفر التي عملها أبو عامر، ليقع فيها المسلمون، فأخذ علي بن أبي طالب بيده، ورفعه طلحة بن عبيد الله، حتى استوى قائمًا، ومصَّ مالك بن سنان أبو أبي سعيد الدم من وجه رسول الله ثم بصقه، فقال النبي: من مس دمه دمي لم تمسسه النار.

وذكر قتادة أن رسول الله لما وقع لشقه أغمى عليه، فمر به سالم مولى أبي حذيفة، فأجلسه ومسح الدم عن وجهه، فأفاق وهو يقول: كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى الله.

فأنزل الله: لَ سَ لَكَ مِنَ أم رِ شَ ءٌ أ يَتُوبَ عَلَ هِ
أَ يُعَذِّبَهُ فَإِنَّهُ ظَٰلِمُونَ ١٢٨ [سورة آل عمران، آية: 128].

وجعل رسول الله يدعو الناس ويقول: إليَّ عباد الله، إليَّ عباد الله.

فاجتمع إليه ثلاثون رجلًا فجعلوا يسيرون بين يديه، فلم يقف أحد إلا طلحة وسهل بن حنيف، فحماه طلحة فرُمي بسهم في يده فيبست يده، وأقبل أُبي بن خلف الجمحي وقد حلف ليقتلنَّ النبي، فقال النبي: بل أنا أقتله. وقال النبي له: يا كذاب، أين تفر؟

فحمل عليه فطعنه النبي في جيب الدرع، فجُرِحَ جرحًا خفيفًا، فوقع يخور خُوار الثور، فاحتملوه الناسُ وقالوا: ليس بك جراحة، فما يُجزعك؟ قال: أليس قال لأقتلنَّك؟ لو كانت تجتمع ربيعة ومضر لقتلَهم، فلم يلبث إلا يومًا أو بعض يوم حتى مات من ذلك الجرح.

وكان ابن عمر يقول: مات أُبي بن خلف ببطن رابغ، فإني لأسير ببطن رابغ بعد هَوْيٍ من الليل، إذا أنا بنار تأججت فهِبْتُها، وإذا برجلٍ يَخرجُ منها بسلسلة يجذبها يُهيِّجُه العطش، فإذا رجلٌ يقول: لا تسقه، فإنه قتيل رسول الله - -، هذا أُبي بن خلف.

وفشا في الناس أن رسول الله قد قُتل، فقال بعض أصحاب الصخرة: ليت لنا رسولًا إلى عبد الله بن أُبي فيأخذ لنا أمَنَةً من أبي سفيان، يا قوم، إن محمدًا قد قُتل فارجعوا إلى قومكم قبل أن يأتوكم فيقتلوكم.

فقال أنس بن النضر: يا قوم، إنْ كان محمد قد قُتِل، فإنَّ ربَّ محمدٍ لم يُقتل، فقاتِلوا على ما قاتل عليه محمد - -، اللهم إني أعتذر إليك مما يقول هؤلاء، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء.

ثم شدَّ بسيفه. (وقد كانَ أقسمَ بعد أن فاته القتال يوم بدر فقال: لئن الله أشهدني قتالًا للمشركين ليرينَّ ما أصنع).

ثم تقدَّمَ فلقيه سعد بن معاذ دون أحُدٍ فقال له أنس: يا أبا عمرو، أين؟ واهًا لريحِ الجنة أجدُه دون أحد.

فقال له سعد: أنا معك.

وقال سعد: فلم أستطع أن أصنع ما صنع، فوجد فيه بضعًا وثمانينَ من بين ضربةٍ بسيف، وطعنةٍ برمح، ورميةٍ بسهم.

وقاتل حتى قُتِلَ -رضي الله عنه-.

وبعد أن انتهت المعركة بحثوا عنه فلم تعرفه إلا أخته الربيع بنت النضر، وما عرفتْهُ إلا ببنانه، ونزلت هذه الآية: مِّنَ ٱ مُ مِنِينَ رِجَا صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَ فَمِ هُم مَّن قَضَىٰ نَ بَهُۥ وَمِ هُم مَّن يَنتَظِ وَمَا بَدَّلُواْ تَ دِيلٗا ٢٣ [سورة الأحزاب، آية: 23].

قال سعد: فكنا نقول فيه وفي أصحابه نزلت هذه الآية.

وانطلق رسول الله يدعو الناس حتى انتهى إلى أصحاب الصخرة، فلما رأوه، وضع رجل سهمًا في قوسه يريد أن يرميه، فقال: أنا رسول الله.

ففرحوا بذلك حين وجدوا رسول الله، وفرح رسول الله حين رأى أن في أصحابه من يمتنع به.

فلما اجتمعوا وفيهم رسول الله ذهب عنهم الحزن فأقبلوا يذكرون الفتح (أي فتْحُ اللهِ عليهم)، وما فاتهم منه، ويذكرون أصحابهم الذين قُتلوا، فقال الله -عز وجل- في الذين قالوا إن محمدًا قد قُتل فارجعوا إلى قومكم: وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُو قَ خَلَ مِن قَ لِهِ ٱلرُّسُ [سورة آل عمران، آية: 144].

وكان أول النهار في المعركة للمسلمين على الكفار كما قال الله تعالى: وَلَقَ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَ دَهُۥ إِ تَحُسُّونَهُم بِإِ نِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِ تُ وَتَنَٰزَ تُ فِي ٱ رِ وَعَصَ تُم مِّ بَ دِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّو مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّ يَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱ أٓخِرَ ثُمَّ صَرَفَكُ عَ هُ لِيَ تَلِيَكُ وَلَقَ عَفَا عَنكُ وَ ٱللَّهُ ذُو فَ لٍ عَلَى ٱ مُ مِنِينَ ١٥٢ إِ تُ عِدُونَ وَلَا تَ وُ نَ عَلَىٰٓ أَحَ وَ ٱلرَّسُولُ يَ عُوكُ فِيٓ أُ رَىٰكُ فَأَثَٰبَكُ غَ ا بِغَ لِّكَ لَا تَ زَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُ وَ ٱللَّهُ خَبِي بِمَا تَ مَلُونَ ١٥٣ [سورة آل عمران، آية 152 - 153].

قال الإمام أحمد: عن عدة رواة، عن ابن عباس أنه قال: ما نَصَرَ اللهُ في موطن كما نَصَرَ يوم أُحد، فأنكر الناسُ عليه ذلك القول، فقال: بيني وبين مِن

أنكر ذلك كتاب الله، إن الله يقول في يوم أحد: وَلَقَ صَدَقَكُمُ للّهُ وَ دَهُ إِ تَحُسُّونَهُم بِإِ نِهِ .

يقول ابن عباس: والحَسُّ هو القتل.

حَتَّىٰ إِذَا فَشِ تُ إلى قوله: وَلَقَ عَفَا عَنكُ وَ للَّهُ ذُو فَ لٍ عَلَى ۡمُ مِنِينَ وإنما عنى بهذا الرماة، وذلك أن النبي أقامهم في موضع.

ثم قال النبي - -: احموا ظهورنا فإن رأيتمونا نُقتل فلا تنصرونا، وإن رأيتمونا نغنم فلا تشركونا.

فلما غنم النبي وأباحوا عسكر المشركين، أكب الرماة جميعًا فدخلوا في العسكر يأخذون الغنائم، فلما أخلَّ الرماة تلك الخلة التي كانوا فيها، دخلت الخيل من ذلك الموضع على أصحاب النبي، فضرب بعضهم بعضًا فالتبسوا، وقُتِلَ من المسلمين ناس كثير، وقد كان لرسول الله وأصحابه أول النهار حتى قَتَلَ من أصحاب لواء المشركين سبعة أو تسعة.

وجال المسلمون جولة نحو الجبل، وصاح الشيطان، قُتِلَ محمد! فلم يشُك فيه أنه حق، فما زالوا كذلك ما يشكُّون أنه حق، حتى طلع رسول الله - - بين السَّعْدَين يعرفونه بكتفيه إذا مشى، ففرحوا كأن لم يصيبهم ما أصابهم.

فرقى نحونا وهو يقول: اشتدَّ غضب الله على قوم دموا وجه رسول الله. ويقول مرة أخرى: اللهم إنه ليس لهم أن يَعلُونا. حتى انتهى إلينا فمكث ساعة.

قال البخاري عن البراء قال: لقينا المشركين يومئذٍ، وأجلس النبي - - جيشًا من الرماة، وأمر عليهم عبد الله بن جبير وقال: لا تبرحوا إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا.

فلما لقيناهم هربوا حتى رأيت النساء يشتددن في الجبل، رفَعْنَ عن سُوقِهِنَّ، قد بدت خلاخلهن فأخذوا يقولون: الغنيمة الغنيمة! فقال عبد الله: عهد إليَّ النبي ألا تبرحوا فأبوا، فلما أبوا صُرِفَتْ وجوههم فأصيب سبعون قتيلًا، وأشرف أبو سفيان فقال: أفي القوم محمد؟

فقال النبيُّ: لا تجيبوه.

فقال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟

فقال: لا تجيبوه.

فقال: أفي القوم ابن الخطاب؟

فقال: إنَّ هؤلاء قُتلوا، فلوا كانوا أحياء لأجابوا.

فلم يَملك عمر نفسه فقال: كذبت يا عدوَّ الله، أبقى الله عليك ما يحزنك.

فقال أبو سفيان: اعلُ هبل.

فقال النبي: أجيبوه.

قالوا: ما نقول؟

قال: قولوا الله أعلى وأجل.

فقال أبو سفيان: لنا العُزَّى ولا عُزَّى لكم.

فقال النبي: أجيبوه.

قالوا: ما نقول؟

قال: قولوا الله مولانا ولا مولى لكم.

قال أبو سفيان: يومٌ بيومِ بدر، والحربُ سجال، وتجدون مُثْلةً لم آمُرْ بها، ولم تَسُؤني.

(يقصد أنَّ هذا اليوم هو مقابل يوم بدر وما قتلتم منا، وستجدون في قتلاكم أيها المسلمون جثثًا مشوَّهةً لم آمر بتشويهها ولم يسؤني منظرها).

وكان رسول الله - - وأصحابه أصابوا من المشركين يوم بدر مائة وأربعين: سبعين أسيرًا، وسبعين قتيلًا.

وقال البيهقي في (الدلائل): انهزم الناس عن رسول الله - - يوم أحد، وبقي معه أحد عشر رجلًا من الأنصار، فيهم: طلحة بن عبيد الله، وهو يصعد في الجبل فلحقهم المشركون فقال: ألا أحد لهؤلاء؟

فقال طلحة: أنا يا رسول الله.

فقال: كما أنت يا طلحة.

فقال رجل من الأنصار: فأنا يا رسول الله.

فقاتل عنه، وصعد رسول الله - - ومن بقي معه، ثم قُتِلَ الأنصاري فلحقوه.

فقال: ألا رجل لهؤلاء؟

فقال طلحة مثل قوله، فقال رسول الله - - مثل قوله «كما أنت يا طلحة»، فقال رجلٌ من الأنصار: فأنا يا رسول الله.

فقاتل وأصحابه يصعدون ثم قُتل فلحقوه، فلم يَزل النبي - - يقول مثل قوله الأول، ويقول طلحة أنا يا رسول فيحبسه النبي، فيستأذنه رجل من الأنصار للقتال فيأذن له فيقاتل مثل من كان قبله، حتى لم يبقَ معه إلا طلحة، فغَشَوهُما.

فقال رسول الله - -: مَن لهؤلاء؟

فقال طلحة: أنا.

فقاتَل مثل قتال جميع من كان قبله وأصيبت أنامله، فقال: حَسّ. فقال النبيُّ: لو قلت بسم الله لرفعتك الملائكة، والناس ينظرون إليك حتى تلجَ بكَ في جوِّ السماء.

ثم صعد رسول الله - - إلى أصحابه وهم مجتمعون.

وقال سعيد بن المسيب: سمعت سعد بن أبي وقاص يقول: نثَلَ لي رسول الله - - كنانته يوم أحد، وقال: ارمِ فداك أبي وأمي.

أو قال: فلقد رأيت رسول الله - - يناولني النبل ويقول: ارمِ فداك أبي وأمي. حتى إنه ليناولني السهم ليس له نصلٌ، فأرمي به.

وثبت في الصحيحين عن سعد بن أبي وقاص قال: رأيتُ يوم أُحد عن يمين النبي وعن يساره رجلين عليهما ثيابٌ بِيض، يقاتلان أشد القتال، ما رأيتهما قبل ذلك ولا بعده.

وهما جبريل وميكائيل -عليهما السلام-، كما قال أهل العِلم.

وكان أبو طلحة يرمي بين يدي النبي - - يوم أحد، والنبي - - خلفه يَتَّرِسْ به، وكان راميًا، وكان إذا رمى رفع رسول الله - - شَخْصَهُ (بصَرَهُ) ينظر أين يقع سهمه، ويرفع أبو طلحة صدره ويقول: هكذا بأبي أنت وأمي يا رسول الله لا يصيبك سهم، نحري دون نحرك.

وكان أبو طلحة يسوِّر نفسه بين يدي رسول الله - - ويقول: إني جَلْدٌ يا رسول الله، فوجِّهني في حوائجك، ومُرْنِي بما شئت.

وكان أبو طلحة رجلًا راميًا شديد النزع، (أيْ يشدُّ القوسَ بقوةٍ حتى ينطلق السهمُ أقوى)، كَسَرَ يومئذ قوسين أو ثلاثة، وكان الرجلُ يمرُّ معه الجُعبة من النبل، فيقول النبيُّ: انثرها لأبي طلحة.

ويشرفُ النبي - - يَنظر إلى القوم فيقول أبو طلحة: بأبي أنت وأمي لا تُشرف يصيبك سهمٌ من سهام القوم، نحري دون نحرك.

ورأيتُ عائشة بنت أبي بكر، وأم سليم، رأيتهما مشمِّرتَين، أرى خدم سُوقِهِما تنقران القِرَبَ على متونهما، تُفرغانِهِ في أفواه القوم، ثم ترجعان فتملآنها، ثم تجيئان فتفرغانه في أفواه القوم، ولقد وقع السيف من يدَيْ أبي طلحة إمَّا مرتين وإما ثلاثًا.

قال البخاري: عن أنس، عن أبي طلحة قال: كنتُ فيمن تغشَّاه النعاسُ يوم أحد، حتى سقط سيفي من يدي مرارًا، يَسقطُ وآخذه، ويسقط فآخذه.

هكذا ذكر البخاري، ويشهد له قوله تعالى: ثُمَّ أَنزَلَ عَلَ كُم مِّ بَ دِ
غَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَ شَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُ وَطَآئِفَ قَ أَهَمَّ هُ
أَنفُسُهُ يَظُنُّونَ بِ للَّهِ غَ رَ حَقِّ ظَنَّ جَٰهِلِيَّ يَقُولُونَ هَل
لَّنَا مِنَ أَ رِ مِن شَ قُ إِنَّ أَ رَ كُلَّهُ لِلَّ
يُ فُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُ دُونَ لَ يَقُولُونَ لَ كَانَ لَنَا مِنَ
أَ رِ شَ مَّا قُتِ نَا هَٰهُنَ قُل لَّ كُنتُ فِي بُيُوتِكُ لَبَرَزَ
لَّذِينَ كُتِبَ عَلَ هِمُ قَ لُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِ وَلِيَ تَلِيَ للَّهُ مَا
فِي صُدُورِكُ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُ وَ للَّهُ عَلِي بِذَاتِ لصُّدُورِ
١٥٤ إِنَّ لَّذِينَ تَوَلَّ اْ مِنكُ يَ مَ تَقَى جَ عَانِ إِنَّمَا
تَزَلَّهُمُ لشَّ طَٰنُ بِبَ ضِ مَا كَسَبُو وَلَقَ عَفَا للَّهُ
عَ هُ إِنَّ للَّهَ غَفُورٌ حَلِي ١٥٥ [سورة آل عمران، آية 154 - 155].

وكان من ضمن الذين فرُّوا وغفر الله لهم عثمان بن عفان -رضي الله عنه-.

وهذا ما أوردهُ البخاري عن عثمان بن موهب قال: جاء رجل حجَّ البيت فرأى قومًا جلوسًا فقال: من هؤلاء القعود؟

قال: هؤلاء قريش.

قال: من الشيخ؟

قالوا: ابن عمر.

فأتاه فقال: إني سائلك عن شيء، أتحدثني؟

قال: أنشدك بحرمة هذا البيت، أتعلم أن عثمان بن عفان فرَّ يوم أحد؟

قال: نعم.

قال: فتعلمه تغيَّب عن بدر فلم يشهدها؟

قال: نعم.

قال: فتعلم أنه تخلف عن بيعة الرضوان فلم يشهدها؟

قال: نعم.

قال: فكبر.

قال ابن عمر: تعال لأخبرك ولأبين لك عما سألتني عنه، أما فراره يوم أُحد فأشهد أن الله عفا عنه، وأما تغيبه عن بدر فإنه كان تحته بنت النبي - - وكانت مريضة، فقال له رسول الله: إن لك أجر رجل ممن شهد بدرًا وسهمه. أما تغيُّبه عن بيعة الرضوان فإنه لو كان أحَدٌ أعز ببطن مكة من عثمان بن عفان لبعثه مكانه فبعث عثمان، وكانت بيعة الرضوان بعدما ذهب عثمان إلى مكة.

فقال النبي - - بيده اليمنى: هذه يد عثمان. فضرب بها على يده فقال: هذه لعثمان، اذهب بهذا الآن معك.

وقد رواه البخاري أيضًا في موضع آخر، والترمذي من حديث أبي عوانة، عن عثمان بن عبد الله بن موهب به.

لذلك كان ذلك شرفًا لعثمان أنَّ كلَّ رجلٍ بايع النبيَّ بيدِ نفسِه، أما عثمانُ فكانت يدُ النبيِّ الشريفة تنوبُ عن يدِ عثمان، فأيُّ شرفٍ هذا!

والمقصود أن معركة أحد وقع فيها أشياء مما وقع في بدر، منها: حصول النعاس حال التحام الحرب، وهذا دليل على طمأنينة القلوب بنصر الله وتأييده، وتمام توكلها على خالقها وبارئها.

كما قال ابن مسعود، وغيره من السلف: النعاس في الحرب من الإيمان، والنعاس في الصلاة من النفاق، ولهذا قال بعد هذا: وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ ... [الآية 154، سورة آل عمران].

ومن ذلك أن رسول الله - - استنصَر باللهِ يوم أَحد كما استنصر يوم بدر بقوله: إن تشأ لا تعبد في الأرض.

وقال البخاري: حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا سفيان، عن عمرو، سمع جابر بن عبد الله قال: قال رجل للنبي - - يوم أحد: أرأيت إن قتلت فأين أنا؟

قال: في الجنة.

فألقى تمرات في يده ثم قاتل حتى قُتل.

ورواه مسلم والنسائي من حديث سفيان بن عيينة به، وهذه قصة شبيهة بقصة عمير بن الحمام التي جاءت في غزوة بدر -رضي الله عنهما وأرضاهما-.

وقال البخاري عن عدة رواة إنه سمع سهل بن سعد وهو يسأل عن جرح النبي - - فقال: أما والله إني لأعرف مَن كان يغسل جرح رسول الله - -، ومَن كان يسكب الماء، وبما دُووِي.

فقال: كانت فاطمة بنت رسول الله - - تغسله، وعليٌّ يسكب الماء بالمِجَن، فلما رأت فاطمة أن الماءَ لا يزيد الدم إلا كثرة، أخذت قطعة من حصير فأحرقتها حتى إذا صارت رمادًا، ألصقتها فاستمسك الدم، وكُسرَت رباعيته يومئذ، وجُرح وجهه، وكُسرت البيضة على رأسه.

وعن أم المؤمنين عائشة قالت: كان أبو بكر إذا ذكر يوم أُحد قال: ذاك يوم كله لطلحة.

ثم يقول: كنت أول من فاء يوم أُحد، فرأيت رجلًا يقاتل في سبيل الله دونه، وأراه قال حمية، قال: فقلت: كنْ طلحة، حيث فاتني ما فاتني، فقلتُ يكون رجلًا من قومي أحبَّ إليَّ، وبيني وبين المشركين رجلٌ لا أعرفه، وأنا أقرب إلى رسول الله - - منه، وهو يخطف المشي خطفًا لا أخطفه، فإذا هو أبو عبيدة بن الجراح. فانتهينا إلى رسول الله - - وقد كُسرت رباعيته، وشُج في وجهه، وقد دخل في وجنته حلقتان من حلق المغفر، قال رسول الله - -: عليكما صاحبكما (يقصد طلحة وقد نزف)، فلم نلتفت إلى قوله.

قال: وذهبت لأنزع ذاك من وجهه، فقال أبو عبيدة: أقسم عليك بحقي لما تركتني. فتركته فكره تناولها بيده فيؤذي رسول الله - - فأزمَّ عليها بفِيه،

فاستخرج إحدى الحلقتين، ووقعت ثنيته مع الحلقة، وذهبت لأصنع ما صنع فقال: أقسمتُ عليك بحقي لما تركتني.

ففعل مثل ما فعل في المرة الأولى، فوقعت ثنيته الأخرى مع الحلقة، فكان أبو عبيدة -رضي الله عنه- من أحسن الناس هَتْمًا، فأصلحنا من شأن رسول الله - -.

ثم أتينا طلحة في بعض تلك الجفار، فإذا به بضعٌ وسبعونَ من بين طعنةٍ ورميةٍ وضربةٍ أو أقل أو أكثر، وإذا قد قُطع إصبعه فأصلحنا من شأنه.

وذكر الواقدي عن عدة رواة قال: سمعتُ رجلًا من المهاجرين يقول: شهدتُ أحدًا فنظرتُ إلى النبل تأتي من كل ناحية، ورسول الله - - وسطها، كل ذلك يُصرَف عنه.

ولقد رأيت عبد الله بن شهاب الزهري يومئذ يقول: دُلُّوني على محمد، لا نجوتُ إن نجا. ورسول الله - - إلى جنبه ما معه أحد، فجاوَزهُ (أي اجتاز النبيَّ وهو جانبه لم يرَه)، فعاتبه في ذلك صفوان بن أمية، فقال الرجل لصفوان: والله ما رأيته، أحلفُ بالله إنه منَّا ممنوع، خرجْنَا أربعةً فتعاهدنا وتعاقدنا على قتله، فلم نخلُص إليه.

وإنَّ سعد بن أبي وقاص قال: والله ما حرصتُ على قتل أحد قط، ما حرصت على قتل عتبة بن أبي وقاص، وإن كان ما علمتُ لسيِّءَ الخلُق مُبْغَضًا في قومه، ولقد كفاني فيه قول رسول الله - -: اشتد غضب الله على مَن دمى وجه رسوله.

حتى إن رسول الله - - صلى الظهر يوم أحد قاعدًا من الجراح التي أصابته، وصلى المسلمون خلفه قعودًا، وهذا ذكره ابن هشام.

وقال عبد الرزاق: عن عدة رواة عن مقسم، إن رسول الله - - دعا على عتبة بن أبي وقاص حين كسر رباعيته ودمى وجهه، فقال: اللهم لا يحول عليه الحول حتى يموت كافرًا.

فما حال عليه الحول حتى مات كافرًا إلى النار.

ولما نال عبد الله بن قمئة من رسول الله - - ما نال، رجع وهو يقول: قتلت محمدًا، وصرخ الشيطان يومئذ بأبعد صوت: ألا إنَّ محمدًا قد قُتِل!

فحصلتْ بهتةٌ عظيمة في المسلمين، واعتقد كثير من الناس ذلك، وصمَّموا على القتال عن جوزة الإسلام حتى يموتوا على ما مات عليه رسول الله - -، منهم: أنس بن النضر وغيره.

وقد أنزل الله -تعالى- التسلية في ذلك على تقدير وقوعه، فقال تعالى:

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُو قَ خَلَ مِن قَ لِهِ لرُّسُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَ قُتِلَ نقَلَ تُم عَلَىٰٓ أَ قَٰبِكُ وَمَن يَنقَلِ عَلَىٰ عَقِبَ هِ فَلَن يَضُرّ للَّهَ شَ وَسَيَ زِي للَّهُ لشَّكِرِينَ ١٤٤ وَمَا كَانَ لِنَ سٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِ نِ للَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًاۗ وَمَن يُرِ ثَوَابَ لدُّ يَا نُ تِهِ مِن هَا وَمَن يُرِ ثَوَابَ أَٰخِرَةِ نُ تِهِ مِ هَ وَسَنَ زِي لشَّكِرِينَ ١٤٥ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِ قُٰتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِير فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُ فِي سَبِيلِ للَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا تَكَانُو وَ للَّهُ يُحِبُّ لصَّبِرِينَ ١٤٦ وَمَا كَانَ قَ لَهُ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا فِ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِ رَافَنَا فِيٓ أَ رِنَا وَثَبِّ أَ دَامَنَا وَ نصُ نَا عَلَى قَ مِ كَٰفِرِينَ ١٤٧ فَ‍َٔاتَىٰهُمُ للَّهُ ثَوَابَ لدُّ يَا وَحُس نَ ثَوَابِ أَٰخِرَ وَ للَّهُ يُحِبُّ مُ سِنِينَ ١٤٨ يَٰٓأَيُّهَا لَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ لَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُ عَلَىٰٓ أَ قَٰبِكُ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ١٤٩ بَلِ للَّهُ مَ لَىٰكُ وَهُوَ خَ رُ لنَّٰصِرِينَ ١٥٠ سَنُ قِي فِي قُلُوبِ لَّذِينَ كَفَرُواْ لرُّ بَ بِمَآ أَ رَكُواْ بِ للَّهِ مَا لَ يُنَزِّ بِهِ سُ طَٰنً وَمَ وَىٰهُمُ لنَّار وَبِ سَ مَ وَى لظَّٰلِمِينَ ١٥١

[سورة آل عمران، آية: 144-151].

وروى البيهقي في (دلائل النبوة): مر رجل من المهاجرين يوم أحد على رجل من الأنصار وهو يتشحَّط في دمه، فقال له: يا فلان، أشعرتَ أنَّ محمدًا قد قُتل؟

فقال الأنصاري: إن كان محمد - - قد قُتِل، فقد بلَّغ الرسالة، فقاتلوا عن دينكم. فنزلت الآية: وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُو قَ خَلَ مِن قَ لِهِ لرُّسُ ... [الآية: 144، سورة آل عمران]. ولعل هذا الأنصاري هو أنس بن النضر -رضي الله عنه-، وهو عم أنس بن مالك.

وقال البخاري: عن عدة رواة، عن عائشة قالت: لما كان يوم أحد هُزم المشركون فصرخ إبليس لعنة الله عليه: أي عبادَ الله أُخْراكم. فرجَعَتْ أُولاهم فاجتلَدَتْ هي وأخراهم، فبصر حذيفة فإذا هو بأبيه اليمان فقال: أي عباد الله أبي، أبي.

قالت: فوالله ما احتجزوا حتى قتلوه.

فقال حذيفة: يغفر الله لكم.

قال عروة: فوالله ما زال في حذيفة بقيةُ خير حتى لقي الله -عز وجل-.

وكان سبب ذلك أنَّ اليمان، وثابت بن وَقش كانا في الأطام مع النساء لكبرهما وضعفهما فقالا: إنه لم يبق من آجالنا إلا ظمأ حمار (أي بقي من العمر مدةً كالمدة التي يشرب بها الحمار الماء وهي قصيرة). فنزلا ليحضرا الحرب فجاء طريقهما ناحية المشركين، فأما ثابت فقتله المشركون، وأما اليمان فقتله المسلمون خطأ، وتصدق حذيفة بدِيَّة أبيه على المسلمين، ولم يعاتب أحدًا منهم لظهور العذر في ذلك.

وعن جابر بن عبد الله أن قتادة بن النعمان أُصيبت عينه يوم أحد حتى سالت على خده، فردَّها رسول الله - - مكانها، فكانت أحسن عينيه وأحَدَّهُما، وكانت لا ترمد إذا رمدت الأخرى. وبعد زمنٍ لما وفد ولد قتادة النعمان على عمر بن عبد العزيز قال له: من أنت؟

فقال له مرتجلًا:

أنا ابن الذي سالت على الخد عينه	**فردت بكف المصطفى أحسنَ الرد**
فعادت كما كانت لأول أمرها	**فيا حُسْنَهَا عينًا ويا حُسْنُ ما خدّ**

فوصله عمر بن عبد العزيز فأحسن جائزته -رضي الله عنه-.

وجاء في الأخبار أن أم سعد بنت سعد بن الربيع كانت تقول: دخلت على أم عمارة (نسيبة بنت كعب) فقلت لها: يا خالة، أخبريني خبرك.

فقالت أم عمارة: خرجت أول النهار أنظر ما يصنع الناس، ومعي سقاء فيه ماء، فانتهيت إلى رسول الله - - وهو في أصحابه، والدولة والربح للمسلمين.

فلما انهزم المسلمون انحزْتُ إلى رسول الله - -، فقمتُ أباشر القتال، وأذبُّ عنه بالسيف، وأرمي عنه القوس، حتى خلَصَت الجراح إليَّ.

فقالت أمُّ سعد: فرأيت على عاتقها جرحًا أجوف له غور، فقلت لها: أصابك بهذا؟

قالت: ابن قمئة، أقمأه الله، لمَّا ولَّى الناس عن رسول الله - - أقبل يقول: دلوني على محمد لا نجوتُ إن نجا.

فاعترضتُ له أنا، ومصعب بن عمير، وأناسٌ ممَّن ثبَتَ مع رسول الله - -، فضربني هذه الضربة، ولقد ضربته على ذلك ضربات، ولكن عدوَّ الله كانت عليه درعان.

وترَسَ أبو دجانة دون رسول الله - - بنفسه، يقع النبل في ظهره وهو منحنٍ عليه، حتى كثر فيه النبل.

قال ابن إسحاق: إنَّ رسول الله - - رمى عن قوسه حتى اندقَّت سِيَتُها، فأخذها قَتادة بن النعمان فكانت عنده.

قال ابن إسحاق: انتهى أنس بن النضر إلى عمر بن الخطاب وطلحة بن عبيد الله في رجالٍ من المهاجرين والأنصار وقد ألقوا بأيديهم، فقال: فما يُجلِسُكم؟

قالوا: قُتِلَ رسول الله - -.

قال: فما تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله - -.

ثم استقبل القوم، فقاتل حتى قُتل، وبه سُمِّيَ أنس بن مالك لأنَّ ابن النضر عمه.

وكان الحليس بن زيان، وهو رجلٌ من بني الحارث بن عبد مناة -وهو يومئذ سيد الأحابيش-، مَرَّ بأبي سفيان وهو يضرب في شِدْقِ حمزة بن عبد المطلب بِزُجّ الرمح، ويقول: ذُق عقَقَ، (أي ذُق يا مَن عقَقْتَ أهلك وعشيرتك).

فقال الحليس: يا بني كنانة، هذا سيد قريش يصنع بابن عمه ما ترَون.

فقال أبو سفيان: ويحك، اكتمها عني فإنها كانت زلة.

ثم إن أبا سفيان حين أراد الانصراف، أشرف على الجبل، ثم صرخ بأعلى صوته: أَنْعِمَتْ فِعال، إن الحرب سِجال، يومٌ بيوم بدر، اعلُ هبل.

فقال رسول الله - - لعمر: قُم يا عمر فأجبه فقل: الله أعلى وأجل، لا سواء، قتلانا في الجنة، وقتلاكم في النار.

فقال له أبو سفيان: هلُمَّ إليَّ يا عمر.

فقال رسول الله - - لعمر: ائته فانظر ما شأنُه.

فجاءه عمر، فقال له أبو سفيان: أُنشِدُكَ الله يا عمر، أقتلنا محمدًا؟

فقال عمر: اللهمَّ لا، وإنه ليسمع كلامك الآن.

قال: أنت عندي أصدق من ابن قمئة وأبرُّ. (وذلك لأنَّ ابنَ قمئة ادَّعى أنه قتلَ محمدًا -عليه الصلاة والسلام-).

ثم نادى أبو سفيان: إنه قد كان في قتلاكم مُثُلْ، والله ما رضيت وما سخطت وما نهيت ولا أمرت.

ولما انصرف أبو سفيان نادى فقال: إنَّ موعدكم بدر العام المقبل.

فقال رسول الله - - لرجل من أصحابه: قل نعم، هو بيننا وبينك موعد.

ثم بعث رسول الله - - عليّ بن أبي طالب، فقال: اخرج في آثار القوم وانظر ماذا يصنعون وما يريدون، فإن كانوا قد جَنَّبُوا الخيلَ وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فهم يريدون المدينة، والذي نفسي بيده إن أرادوها لأسيرنَّ إليهم فيها ثمَّ لأناجزنَّهم.

قال عليٌّ: فخرجت في أثرهم أنظر ماذا يصنعون، فجنَّبوا الخيل وامتطوا الإبل، ووَجَّهُوا إلى مكة.

ولما انتهت المعركة وانكفأ المشركون قال رسول الله - -: استووا حتى أثني على ربي عز وجل.

فصاروا خلفه صفوفًا فقال: اللهم لك الحمد كله، اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لمن أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرب لما باعدت، ولا مبعد لما قرَّبت، اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك، اللهم إني أسألك

النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول، اللهم إني أسألك النعيم يوم العيلة، والأمن يوم الخوف.

اللهم إني عائذ بك من شر ما أعطيتنا وشر ما منعتنا، اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكرِّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين، اللهم توفنا مسلمين وأحينا مسلمين وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين، اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك ويصدون عن سبيلك واجعل عليهم رجزك وعذابك، اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب إله الحق.

وفرغ الناس لقتلاهم وقال رسول الله - -: مَنْ رَجلٌ ينظرُ لي ما فعلَ سعد بن الربيع، أفي الأحياء هو أم في الأموات؟

فقال رجل من الأنصار: أنا. فنظر فوجده جريحًا في القتلى وبه رمق.

فقال الرجلُ لسعد: إنَّ رسول الله - - أمرني أن أنظر أفي الأحياء أنت أم في الأموات.

فقال سعد: أنا في الأموات، فأبْلِغ رسول الله - - سلامي، وقل له إنَّ سعد بن الربيع يقول لك جزاك الله عنا خير ما جزى نبيًّا عن أمته، وأبْلِغ قومك الأنصار عني السلام، وقل لهم إنَّ سعد بن الربيع يقولُ لكم إنه لا عذر لكم عند الله إن خَلُصَ إلى نبيِّكم وفيكم عينٌ تطرف.

قال الرجلُ: ثمَّ لم أبرح حتى مات سعد، وجئت النبي - - فأخبرته خبره.

وكان هذا الرجل الذي التمس سعدًا في القتلى هو محمد بن سلمة، وذكر أنه نادى سعدًا مرتين فلم يجبه، فلما قال إن رسول الله أمرني أن أنظر خبرك، أجابه بصوت ضعيف وذكر بقية القصة.

وكان سعد بن الربيع من النقباء ليلة العقبة -رضي الله عنه-، وهو الذي آخى رسول الله - - بينه وبين عبد الرحمن بن عوف.

وخرج رسول الله - - يلتمس حمزة بن عبد المطلب، فوجده ببطن الوادي قد بُقِرَ بطنه عن كبده، ومُثِّل به فجُدِعَ أنفه وأذناه، وأن رسول الله - - قال حين رأى ما رأى: لولا أنْ تحزن صفية وتكون سُنةً من بعدي لتركته حتى يكون في بطون السباع، وحواصل الطير، ولئن أظهرني الله على قريش في موطن من المواطن لأمُثِّلَنَّ بثلاثين رجلًا منهم.

فلما رأى المسلمون حزن رسول الله - - وغيظه على من فعل بعمه ما فعل، قالوا: والله لئن أظفرنا الله بهم يومًا من الدهر لنُمَثِّلَنَّ بهم مُثْلَةً لم يمثلها أحد من العرب.

فأنزل اللهُ في ذلك: وَإِ عَاقَ تُ فَعَاقِبُواْ بِمِ لِ مَا عُوقِ تُم بِهِ وَلَئِن صَبَ تُ لَهُوَ خَ لِّلصَّبِرِينَ ١٢٦ . [سورة النحل، آية: 126]

فعفا رسول الله - - وصبر، ونهى عن المُثلة.

وعن سَمُرة بن جندب قال: ما قام رسول الله - - في مقام قط ففارقه، حتى يأمر بالصدقة وينهى عن المُثْلَة (التمثيل بالموتى).

ووقف النبي - - على حمزة فقال: لن أُصاب بمثلك أبدًا، ما وقفت قط موقفًا أغيظ إليَّ من هذا.

ثم قال - -: جاءني جبريل فأخبرني أن حمزة مكتوبٌ في أهل السموات السبع: حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله.

أما هند بنت عتبة فقد أخذت كبد حمزة فلاكتها فلم تستطع أن تأكلها.

فقال رسول الله: أأكلَتْ شيئًا؟

قالوا: لا.

قال: ما كان الله ليدخل شيئًا من حمزة في النار.

ثمَّ إنَّ رسول الله - - كان يجمع بين الرجلين من قتلى أُحد في ثوب واحد، ثم يقول: أيُّهم أكثر أخذًا للقرآن؟

فإذا أُشير إلى أحدهما قدَّمَهُ في اللحد وقال: أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة.

وأمَرَ بدفنهم بدمائهم، ولم يُصلِّ عليهم، ولم يُغسَّلوا.

وهذا حديثٌ تفرد به البخاري دون مسلم، ورواه أهل السنن.

وقال جابر بن عبد الله إن النبي - - قال في قتلى أحد: فإنَّ كل جرحٍ أو كلَّ دمٍ يفوحُ مسكًا يوم القيامة. ولم يُصلِّ عليهم.

لكن ثَبَتَ أنه صلى عليهم بعد ذلك بسنين عديدة قبل وفاته بوقتٍ يسير، كما قال البخاري عن عقبة بن عامر قال: صلى رسول الله - - على قتلى أحد بعد

ثماني سنين كالمودِّع للأحياء والأموات، ثم طلع المنبر فقال: إني بين أيديكم فرط، وأنا عليكم شهيد، وإن موعدكم الحوض، وإني لأنظر إليه من مقامي هذا، وإني لست أخشى عليكم أن تشركوا، ولكني أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوها.

قال عقبة: فكانت آخر نظرة نظرتها إلى رسول الله - -.

وقد أقبلت صفية بنت عبد المطلب أخت حمزة لتنظر إليه، وكان أخاها لأبيها وأمها، فقال رسول الله - - لابنها الزبير بن العوام: أَلْقِهَا فأرجعها لا ترى ما بأخيها.

فقال لها: يا أمَّه، إن رسول الله - - يأمرك أن ترجعي.

قالت: ولمَ؟ وقد بلغَني أنه مُثِّلَ بأخي وذلك في الله، فما أرضانا ما كان من ذلك، لأحتسبنَّ ولأصبرنَّ إن شاء الله.

فلما جاء الزبير إلى رسول الله - - وأخبره بذلك، قال: خلِّ سبيلها.

فأتته فنظرَتْ إليه وصلَّتْ عليه واسترجعت واستغفرت، ثم أمر به رسول الله - - فدُفن، ودُفن معه ابن أخته عبد الله بن جحش، وأمه أميمة بنت عبد المطلب، وكان قد مُثِّلَ به، غير أنه لم ينقر عن كبده -رضي الله عنهما-، وكان يقال له المُجدَع في الله.

وذكر سعد أنه هو وعبد الله بن جحش دَعيا بدعوة فاستُجيبت لهما، فدعا سعد أن يلقى فارسًا من المشركين فيقتله ويستلبه، فكان ذلك، ودعا عبد الله بن جحش أنْ يلقاه فارس فيقتله ويجدَعُ أنفه في الله فكان ذلك.

وذكر الزبير بن بكار: إن سيفه يومئذ انقطع فأعطاه رسول الله - - عُرجونًا (والعرجون هو الغصن)، فصار في يد عبد الله بن حجش سيفًا يقاتل به، ثم بِيع في تركة بعض ولده بمائتي دينار، وهذا قيل إنه لعكاشة في يوم بدر.

وقد تقدَّمَ أن رسول الله - - كان يجمع بين الرجلين والثلاثة في القبر الواحد، بل في الكفن الواحد، وإنما أُرْخِصَ لهم في ذلك لما بالمسلمين من الجراح التي يَشقُّ معها أن يحفروا لكل واحدٍ قبرًا، ويُقدِّمُ في اللحد أكثرهما أخذًا للقرآن.

وكان يجمع بين الرجلين المتصاحبين في اللحد الواحد، كما جمع بين عبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر، وبين عمرو بن الجموح، لأنهما كانا متصاحبين ولم يُغسَّلُوا، بل تركهم بجراحهم ودمائهم.

وقال النبيُّ - - أن رسول الله - - لما انصرف عن القتلى يوم أحد قال: أنا شهيد على هؤلاء أنه ما من جريح يُجرح في سبيل الله إلا والله يبعثه يوم القيامة يدمى جرحه، اللون لون دم، والريح ريح مسك.

وقد أمر رسول الله - - يوم أحد بالشهداء أن يُنزع عنهم الحديد والجلود، وقال: ادفنوهم بدمائهم وثيابهم.

وقال الإمام أبو داود في (سننه): جاءت الأنصار إلى رسول الله - - يوم أحد فقالوا: قد أصابنا قرح وجهد، فكيف تأمر؟

فقال: احفروا وأوسعوا واجعلوا الرجلين والثلاثة في القبر الواحد.

قيل: يا رسول الله، فأيُّهُم يُقدَّم؟

قال: أكثرهم قرآنًا.

وقد احتمل ناسٌ من المسلمين قتلاهم إلى المدينة فدفنوهم بها، ثم نهى رسول الله - - عن ذلك وقال: ادفنوهم حيث صُرِعوا.

وقال جابر بن عبد الله: استُشهد أبي بأحُد، فأرسلَني إخواني إليه بناضحٍ لهنَّ فقُلْنَ: اذهب فاحتمل أباك على هذا الجمل فادفنه في مقبرة بني سلمة. فقال: فجئته وأعوانٌ لي، فبَلَغَ ذلك نبي الله، وهو جالس بأحُد، فدعاني فقال: والذي نفسي بيده لا يُدفنُ إلا مع إخوته. فدُفِنَ مع أصحابه بأحُد.

وفي خلافة معاوية بن أبي سفيان جاء رجل فقال: يا جابر بن عبد الله، والله لقد أثار أباك عُمَّالُ معاوية فبدا فخرج طائفة منه، فأتيته فوجدته على النحو الذي دفنته لم يتغير. (يقصد أنَّ عمالًا لمعاوية في أعمالٍ لهم حفروا فظهر جسد عبد الله بن عمرو بن حرام، ووجدوهُ كما دفنهُ ابنهُ في معركة أحُد لم يتغير منه شيء).

وعن جابر بن عبد الله قال: لما أجرى معاوية العين (الماء) عند قتلى أحد بعد أربعين سنة، استصرخناهم إليهم، فأتيناهم فأخرجناهم فأصابت المسحاة قدم حمزة فانبعث دمًا.

وفي رواية عن جابر قال: فأخرجناهم كأنما دُفنوا بالأمس.

وذكر الواقدي: إن معاوية لما أراد أن يجري العين نادى مناديه: من كان له قتيل بأحد فليشهد.

قال جابر: فحفرنا عنهم، فوجدت أبي في قبره كأنما هو نائم على هيئته وما تغير من حاله قليل ولا كثير، ووجدنا جاره في قبره عمرو بن الجموح ويده على جرحه، فأُزيلت عنه فانبعث جرحه دمًا.

ويُقال: إنه فاح من قبورهم مثل ريح المسك -رضي الله عنهم أجمعين-، وذلك بعد ست وأربعين سنة من يوم دُفنوا.

وعن جابر قال: لما حضر أُحد دعاني أبي من الليل فقال لي: ما أراني إلا مقتولًا في أول من يُقتل من أصحاب النبي - -، وإني لا أترك بعدي أعزَّ عليَّ منك غير نفس رسول الله - -، وإنَّ عليَّ دَينًا فاقضِ، واستوصِ بأخَوَاتك خيرًا.

فأصبحنا وكان أول قتيل، فدفَنْتُ معه آخَرَ في قبره، ثم لم تَطِبْ نفسي أن أتركه مع آخَر، فاستخرجتُه بعد ستة أشهر فإذا هو مثل يوم وضَعْتُه هيئته، غير أذنه.

وثبت في الصحيحين من حديث شعبة، عن محمد بن المنكدر، عن جابر أنه لما قُتل أبوه جعل يكشف عن الثوب ويبكي، فنهاه الناس، فقال رسول الله: تبكيه أو لا تبكيه لم تزل الملائكة تظله حتى رفعتموه. (وفي رواية أن عمته هي الباكية).

وعن جابر بن عبد الله قال: نظر إلى رسول الله - - فقال: مالي أراك مهتمًّا؟

قلتُ: يا رسول الله، قُتِلَ أبي وترك دينًا وعيالًا.

فقال: ألا أُخبرك، ما كلَّمَ الله أحدًا إلا من وراء حجاب، وإنه كلَّمَ أباكَ كفاحًا وقال له: يا عبدي، سَلْني أُعْطِك. فقال: أسألك أن تردَّني إلى الدنيا فأُقتَلُ فيك ثانية. فقال: إنه قد سبق مني القول إنهم إليها لا يرجعون. قال: يا رب فأبلغ مَن ورائي.

فأنزل الله: وَلَا تَ سَبَنَّ لَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ للَّهِ أَ ۚ بَ أَ يَآءٌ عِندَ رَبِّهِ يُ زَقُونَ ١٦٩ [سورة آل عمران، آية: 169].

وعن أبي هريرة أن رسول الله - - حين انصرف من أُحد مر على مصعب بن عمير، وهو مقتول على طريقه، فوقف عليه فدعا له، ثم قرأ: مِّنَ ۡمُ مِنِينَ رِجَا صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ للَّهَ عَلَ [سورة الأحزاب، آية: 23].

قال: أشهد أن هؤلاء شهداء عند الله يوم القيامة، فأتوهم وزوروهم، والذي نفسي بيده لا يُسلِّمُ عليهم أحدٌ إلى يوم القيامة إلا ردُّوا عليه.

وحَدَّثَ العطاف بن خالد، أنَّ خالته قالت: ركبتُ يومًا إلى قبور الشهداء -وكانت ما تزال تأتيهم- فنزلْتُ عند حمزة فصلَّيت ما شاء الله أن أصلي، وما في الوادي داعٍ ولا مُجيب، إلا غلامًا قائمًا آخذًا برأس دابتي، فلما فرغتُ من صلاتي قلت هكذا بيدي: السلام عليكم.

قالت: فسمعت ردَّ السلامِ عليَّ يخرجُ من تحت الأرض أعرفه كما أعرف أنَّ الله -عز وجلَّ- خلقني، وكما أعرف الليل والنهار، فاقشعرَّت كلُّ شعرةٍ مني.

وعن ابن عباس قال: قال النبي - -: لمَّا أُصيب إخوانكم يوم أحد جعل الله أرواحهم في أجواف طيرٍ خُضر تَرِدُ أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب معلَّقةٍ في ظلِّ العرش، فلمَّا وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومَقِيلِهِم قالوا: مَن يُبلِّغُ إخواننا عنا أنَّا أحياءٌ في الجنة نُرزق لئلا ينكّلُوا عن الحرب، ولا يزهدوا في الجهاد؟ فقال الله -عز وجل-: أنا أبلِّغُهُم عنكم. فأنزل الله في الكتاب قوله تعالى: وَلَا تَ سَبَنَّ لَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ للَّهِ أَم وَٰ بَ أَ يَآءٌ عِندَ رَبِّهِ يُ زَقُونَ ١٦٩ [سورة آل عمران، آية: 169].

وقد ثبت في الحديث الصحيح عن البخاري عن البراء أنَّ المشركينَ قتلوا من المسلمين سبعين رجلًا، وقيل: بل تسعة وأربعين، وقُتِلَ من المشركين يومئذ ستة عشر رجلًا، وقال عروة: تسعة عشر، وقال ابن إسحاق: اثنان وعشرون، وقال الربيع، عن الشافعي: ولم يؤسر من المشركين سوى أبي عزَّة الجمحي، وقد كان في الأسارى يوم بدر، فمنَّ عليه رسول الله - - بلا فدية، واشترَطَ عليه ألا يقاتله، فلمَّا أُسِرَ يوم أحد قال: يا محمد، امْنُن عليَّ لبناتي وأعاهد ألا أقاتلك.

فقال رسول الله - -: لا أدَعُكَ تمسح عارضيك بمكة وتقول خدعتُ محمدًا مرتين.

ثم أَمَرَ به فضُربت عنقه.

وذكر بعضهم أنه يومئذ قال رسول الله - -: لا يُلدغ المؤمن من جحر مرتين.

ثم انصرف رسول الله - - إلى المدينة فلقيته حمنة بنت جحش، فلما لقيت الناس نُعِيَ إليها أخوها عبد الله بن جحش، فاسترجعت واستغفرت له، ثم نُعِيَ لها خالُها حمزة بن عبد المطلب، فاسترجعت واستغفرت له، ثم نُعِيَ لها زوجُها مصعب بن عمير، فصاحت وولولت.

فقال رسول الله - -: إنَّ زوج المرأة منها لَبِمَكَان.

لِما رأى من تثبُّتِها عند أخيها وخالها، وصياحها على زوجها.

فلما انتهى رسول الله - - إلى أهله، ناول سيفه ابنته فاطمة فقال: اغسلي عن هذا دمه يا بنية، فوالله لقد صدقني في هذا اليوم.

وناولها علي بن أبي طالب سيفه فقال: وهذا فاغسلي عنه دمه، فوالله لقد صدقني اليوم.

فقال رسول الله - -: لئن كنت صدقت القتال، لقد صدقه معك سهل بن حنيف وأبو دجانة.

وفي موضع آخر: لما رأى رسول الله - - سيف عليٍّ مخضبًا بالدماء قال: لئن كنت أحسنتَ القتال فقد أحسن عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح، والحارث بن الصمة، وسهل بن حنيف.

وسيف رسول الله - - هذا هو ذو الفقار، وقال بعض أهل العلم: نادى مُنادٍ يوم أحد: لا سيف إلا ذو الفقار.

ومر رسول الله - - بدار بني عبد الأشهل، فسمع البكاء والنوائح على قتلاهم، فذرفت عينا رسول الله - - ثم قال: لكنَّ حمزة لا بواكي له.

فلمَّا رجع سعد بن معاذ، وأُسيدُ بن الحضير إلى دار بني عبد الأشهل أمَرَا نساءهن أن يتحزَّمن، ثم يَذهبْن فيبكين على عم رسول الله - -.

فخرجْنَ إلى رسول اللهِ يواسينَهُ، لمَّا سمع رسول الله - - بكاءهن على حمزة، خرج عليهنَّ وهن في باب المسجد يبكين فقال: ارجعن يرحمكن الله فقد آسيتن بأنفسكن.

قال: ونهى رسول الله - - يومئذ عن النوح. وقيل إنه لما سمع رسول الله قال: ما هذا؟

فأُخْبِرَ بما فعلَت الأنصار بنسائهم فاستغفرَ لهم، وقال لهم خيرًا، وقال: ما هذا أردتُ وما أحبُّ البكاء. ونهى عنه.

ولما استتب الأمر، قدم رجل من أهل مكة على رسول الله - - فسأله عن أبي سفيان وأصحابه، فقال: نازلتُهُم فسمعتُهم يتلاومون ويقول بعضهم لبعض: لم تصنعوا شيئًا، أصبتُم شوكةَ القوم وحدَهم، ثم تركتموهم ولم تبتُرُوهم، فقد بَقِيَ منهم رؤوسٌ يجمعون لكم.

فأمر رسول الله - - بطلب العدو ليسمعوا بذلك (وكانَ بالمسلمينَ أشُدُّ القرْح) وقال: لا ينطلقنَّ معي إلا مَن شهد القتال.

فقال عبد الله بن أُبي: أنا راكبٌ معك.

فقال: لا.

فاستجابوا لله ولرسوله على الرغم من الذي بهم من البلاء فانطلقوا.

فقال الله في كتابه: لَّذِينَ تَجَابُواْ لِلَّهِ وَ لرَّسُولِ مِ بَ دِ مَآ أَصَابَهُمُ قَ لِلَّذِينَ أَ سَنُواْ مِن هُ وَ تَّقَ اْ أَ رٌ عَظِيمٌ ١٧٢ [سورة آل عمران، آية: 172].

وأذن رسول الله - - لجابر حين ذكر أنَّ أباه أمَرَهُ بالمقام في المدينة على أخواته. وطلب رسول الله - - العدو حتى بلغ حمراء الأسد.

وكانت معركة أُحد في يوم السبت النصف من شوال، فلما كان الغد من يوم الأحد لستٍّ عشرة ليلةً مضت من شوال، أذَّن مؤذن رسول الله - - في الناس بطلب العدو، وأذَّنَ مؤذِّنه ألا يخرجنَّ أَحَدٌ إلا من حضر يومنا بالأمس، فكلَّمه جابر بن عبد الله فأَذِن له.

وإنما خرج رسول الله - - مُرهِبًا للعدو ليُبلِغَهم أنه خرج في طلبهم ليظنوا به قوة، وأنَّ الذي أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم.

قال ابن إسحاق في كتابه، إنَّ رجلًا من بني عبد الأشهل قال: شهدتُ أحُدًا أنا وأخ لي فرجعنا جريحين، فلما أذَّن مؤذن رسول الله - - بالخروج في طلب العدو قلتُ لأخي وقال لي: أتفوتنا غزوة مع رسول الله - -؟ والله ما لنا من دابة نركبها وما منا إلا جريح ثقيل، فخرجنا مع رسول الله - - وكنت أيسر جرحًا منه، فكان إذا غلَبَ حملتُه عَقَبةً ومشى عَقَبة، حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون.

فخرج رسول الله - - حتى انتهى إلى حمراء الأسد (وهي مكانٌ من المدينة على ثمانية أميال) فأقام بها الاثنين والثلاثاء والأربعاء، ثم رجع إلى المدينة، وقد كان استعمل على المدينة ابن أم مكتوم.

وكان معبد بن أبي معبد الخزاعي، وقبيلة خزاعة كلهم مُسلِمُهم وكافِرُهم عَيْبَةُ رسول الله بتهامة، صَفْقَتُهم معه لا يُخفون عنه شيئًا كان بها، ومَعبدُ يومئذ مشرك مرَّ برسول الله - - وهو مقيمٌ بحمراء الأسد فقال: يا محمد، أما والله لقد عزَّ علينا ما أصابك في أصحابك، ولوددنا أنَّ الله عافاك فيهم.

ثم خرج من عند رسول الله - - بحمراء الأسد حتى لقي أبا سفيان بن حرب، ومن معه بالروحاء، وقد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله وأصحابه وقالوا: أصبنا حدَّ أصحابه وقادتهم وأشرافهم، ثم نرجع قبل أن نستأصلهم، لَنَكُرَّنَّ على بقيَّتهم، فلَنَفْرَغَنَّ منهم.

فلما رأى أبو سفيان معبدًا قال: ما وراءك يا معبد؟

قال: محمد قد خرج في أصحابه يطلبكم في جَمعٍ لم أرَ مثله قط، يتحرَّقون عليكم تحرقًا، قد اجتمع معه من كان تخلَّفَ عنه في يومكم، وندموا على ما صنعوا، فيهم من الحُنق عليكم شيءٌ لم أرَ مثله قط.

قال: ويلك ما تقول؟

قال: والله ما أراك ترتحل حتى ترى نواصي الخيل.

قال أبو سفيان: فوالله لقد أجمعنا الكَرَّةَ عليهم لنستأصل شأفتهم.

قال: فإني أنهاك عن ذلك، ووالله لقد حمَلَني ما رأيتُ على أنْ قلتُ فيه أبياتًا من شِعر.

قال: وما قلت؟

قال: قلت:

كادت تهد من الأصوات راحلتي	**إذ سالت الأرض بالجرد الأبابيل**
تردى بأسد كرام لا تنابلة	**عند اللقاء ولا ميل معازيل**
فظلت عدوًا أظن الأرض مائلة	**لما سموا برئيس غير مخذول**
فقلت ويل ابن حرب من لقائكم	**إذا تَغَطْمَطَتِ البطحاء بالجيل**
إني نذير لأهل البسل ضاحية	**لكل ذي أربة منهم ومعقول**
من جيش أحمد لا وخش قنابله	**وليس يوصف ما أنذرت بالقيل**

فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه عائدون إلى مكة، ومر به ركب من عبد القيس فقال: أين تريدون؟

قالوا: المدينة.

قال: ولمَ؟

قالوا: نريد الميرة.

قال: فهل أنتم مبلِّغون عني محمدًا رسالة أرسلكم بها إليه، وأحمِّلَ لكم إبلكم هذه غدًا زبيبًا بعكاظ إذا وافيتموها؟

قالوا: نعم.

قال: فإذا وافيتموه فأخبروه أنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم.

فمَرَّ الركبُ برسول الله وهو بحمراء الأسد، فأخبروه بالذي قال أبو سفيان، فقال: حسبنا الله ونعم الوكيل.

وقد قال ابن عباس: حسبنا الله ونعم الوكيل، قالها إبراهيم عليه السلام حين أُلقي في النار، وقالها محمد - - حين قالوا إنَّ الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانًا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل.

وقال النبي - - وهو بحمراء الأسد، حين بلغه أنهم همُّوا بالرجعة: والذي نفسي بيده لقد سُوِّمَتْ لهم حجارة، لو صُبِّحُوا بها لكانوا كأمس الذاهب.

ولما رجع رسول الله - - إلى المدينة، كان عبد الله بن أُبي له مَقامٌ يقومه كل جمعة لا يُنكَرْ، له شرفٌ في نفسه وفي قومه، وكان فيه شريفًا، إذا جلس رسول الله - - يوم الجمعة وهو يخطب الناس، قام فقال: أيها الناس، هذا رسول الله بين أظهركم، أكرمكم الله وأعزكم به، فانصروه وعزروه، واسمعوا له وأطيعوا.

ثم يجلس حتى إذا صنع يوم أحد ما صنع ورجع الناس، قام يفعل ذلك كما كان يفعله.

فأخذ المسلمون ثيابه من نواحيه، وقالوا: اجلس أي عدو الله، والله لستَ لذلك بأهل، وقد صنعتَ ما صنعت.

فخرج يتخطَّى رقاب الناس وهو يقول: والله لكأنما قلت بُجُرا، أن قُمْتُ أَشْدُدْ أمره.

فلقيه رجال من الأنصار بباب المسجد فقالوا: ويلَكَ مالَك؟

قال: قمتُ أَشْدُد أمره، فوثب إليَّ رجال من أصحابه يجذبونني ويعنفونني، لكأنما قلت بُجرا أنْ قمت أشدد أمره.

قالوا: ويلَكَ ارجع يستغفر لك رسول الله - -.

فقال عبد الله بن أُبي: والله ما أبغي أن يستغفر لي!

وقالت صفية بنت عبد المطلب تبكي أخاها حمزة بن عبد المطلب، وهي أم الزبير، وعمة النبي - - ورضي الله عنهم أجمعين:

أسائلة أصحاب أحد مخافة	بنات أبي من أعجم وخبير
فقال الخبير إن حمزة قد ثوى	وزير رسول الله خير وزير
دعاه إله الحق ذو العرش دعوة	إلى جنة يحيا بها وسرور
فذاك ما كنا نرجي ونرتجي	لحمزة يوم الحشر خير مصير

فوالله لا أنساك ما هبت الصبا	**بكاء وحزنًا محضري ومسيري**
على أسد الله الذي كان مِدرها	**يذود عن الإسلام كل كفور**
فيا ليت شلوي عند ذاك وأعظمي	**لدى أضبع تعتادني ونسور**
أقول وقد أعلى النعي عشيرتي	**جزى الله خيرًا من أخ ونصير**

وقالت نُعم، امرأة شمَّاس بن عثمان تبكي زوجها:

يا عين جودي بفيض غير إبساس	**على كريم من الفتيان لباس**
صعب البديهة ميمون نقيبته	**حمَّال ألوية ركاب أفراس**
أقول لما أتى الناعي له جزعًا	**أودى الجواد وأودى المطعم الكاسي**
وقلت لما خلت منه مجالسه	**لا يبعد الله منا قرب شماس**

قال: فأجابها أخوها أبو الحكم بن سعيد بن يربوع يعزيها فقال:

اقني حياءك في ستر وفي كرم	**فإنما كان شماس من الناس**
لا تقتلي النفس إذ حانت منيته	**في طاعة الله يوم الروع والباس**
قد كان حمزة ليث الله فاصطبري	**فذاق يومئذ من كأس شماس**

وقالت هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان حين رجعوا من أحد:

رجعت وفي نفسي بلابل جمّـَة	**وقد فاتني بعض الذي كان مطلبي**
من أصحاب بدر من قريش وغيرهم	**بني هاشم منهم ومن أهل يثرب**
ولكنني قد نلت شيئًا ولم يكن	**كما كنت أرجو في مسيري ومركبي**

إنَّ القارئ في حياةِ الصحابةِ يجدُ من العجائبِ ما لا يُصدَّقُ لولا أنَّ شيوخَ الإسلامِ قد رووهُ مُثبتًا، وإنَّ خيرَ أهلِ الأرض بعد الأنبياءِ هم صحابة نبيِّنا -عليه الصلاة والسلام-، ولأنَّ في أخبارهم الكثير مما لا نعرف، والقليل مما عرفنا وقرأنا، فقد جُمِعَ في هذا الكتاب من كلِّ بحرٍ قطرة، ومن كلِّ بستانٍ وارفٍ ثمرة، حتى نصوِّر للقارئ كيفَ كانت حياتُهم، وكيفَ صدقوا ربَّهم، وجاهدوا في سبيله، وأعلَوا كلمَتَه، وكانوا للحقِّ عونًا وعلى الباطلِ سيفًا مُصلتًا.

قد ماتَ نبيُّنا -عليهِ صلواتُ اللهِ ورحمتُهُ- وهو عنهم راضٍ، ونحنُ لا نقولُ إلا ما قالهُ اللهُ في كتابنا وعلَّمنا إياه وَ لَّذِينَ جَآءُو مِ بَ دِهِ يَقُولُونَ رَبَّنَا فِ لَنَا وَلِإِخ ۟وَٰنِنَا لَّذِينَ سَبَقُونَا بِ ۟لْإِيمَٰنِ وَلَا تَ عَ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُو رَّحِيمٌ ١٠ صدقَ اللهُ العظيم. [سورة الحشر، آية: 10].

نحنُ مَن جئنا بعدهم، ونحنُ من نقولُ اللهمَّ اغفر لنا ولإخواننا الذينَ سبقونا بالإيمان، ونُشهِدُ اللهَ على حبِّهم.

وقد اطَّلعنا قدرَ الإمكانِ وتثبَّتنا مما نقلنا في العديد من الكتب، فنقلنا بعضها نصًا، وزدنا بعضها شرحًا، وفصَّلنا في البعض الآخر بالأقوال والآراء من ضوء هذه الكتب التي سنسردها للمزيد من الفائدة، ونسألُ اللهَ التوفيق.

المراجع

1. البداية والنهاية
2. تاريخ ابن الأثير
3. تفسير ابن كثير
4. تفسير الطبراني
5. تاريخ الطبري
6. تفسير الطبري
7. الطبقات الكبير
8. رجال حول الرسول
9. صور من حياة الصحابة
10. فضائل الصحابة
11. الاستيعاب في معرفة الأصحاب
12. الإصابة في تمييز الصحابة
13. أسد الغابة في معرفة الصحابة
14. حياة الصحابة
15. سير أعلام النبلاء
16. السيرة النبوية لابن هشام
17. صحيح البخاري
18. صحيح مسلم
19. مسند الإمام أحمد
20. الطبقات للواقدي
21. دلائل النبوة
22. فتح الباري
23. معجم الصحابة

24. تفسير البغوي
25. موقع قصة الإسلام - راغب السرجاني
26. عين الإصابة في معرفة الصحابة
27. محاضرات العلامة سعيد الكملي في شرح الموطأ
28. صفة الصفوة
29. رجال من عصر النبوة
30. المغازي
31. دلائل النبوة البيهقي
32. سنن أبو داود

الفهرس

عميرُ بن وهب الجُمَحي 7
عبد الله بن سلام 15
النجاشيُّ 23
غزوة تبوك 37
سلمان الفارسي 65
نُعَيمُ بن مسعود 75
عمرو بن الجموح 85
زيد الخير 93
عاصم بن ثابت 101
عبد الله بن عمرو بن العاص 107
عمير بن سعد 117
«نسيج وحده» 117
غزوةُ أحد 125
المراجع 181